6 me Année, No . 251

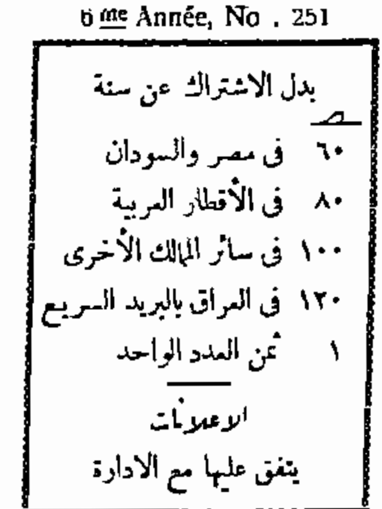
Lundi - 25 - 4 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique


بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــــدد ٢٥١ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٤ صفر سنة ١٣٥٧ — ٢٥ ابريل سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

شم النســـــيم ...

اليوم يا صديقي يوم شم النسيم ! وشم النسيم في مصر هو عيد الطبيعة والناس ؛ والناس الذين يعيدون هذا العيد هم سكان هذا البلد الأمين من كل جنس ونحلة ؛ وهو بهذه الخصيصة يكاد لا يشبهه عيـد من أعياد الأمم . فإن أعياد الأمم إما أن تقوم لذكرى دينيـة فتكون لأهل هذا الدين ، وإما أن تقوم لذكرى وطنية فتكون لأهل هذا الوطن . أما عيد شم النسيم فهو عيد إنساني اشتراكي سمح ، يفتح قلبه لـكل دولة ، ويخلص حبه لـكل ملة ، ويبذل أنسه لـكل جنس . فالمصريون على اختلاف الأديان ، والأجانب على تباين الأوطان ، يتلاقون فيه على بساط الربيع إخواناً في المودة ، أخداناً في السـرور ، يتساقون راح الأنس ، ويتطارحون حديث القلوب ، ويتجردون من فوارق الدنيا ليقفوا أمام الطبيعة الصريحـة أطهاراً من رجس الحياة ، أحراراً من إسار المـادة ، يرتعون في الجنة التي خلق فيها أبوهم الأول ، وينعمون بالصفاء الذي نشأت فيه أسرتهم الأولى

هذه الخصيصة التي تفرد بها هذا العيد إنما اكتسبها من طبيعة هذا الوطن الأريحي الذي طبع بنيه وساكنيه على فيض نيــــله وخصب واديه ورحب صحرائه وصفو سمائه

الفهـــرس

واعتدال جوه ووداعة طبيعته ، لجعل المصري والرومي يعيشان فى قرية ، والمسلم والمسيحى يصليان فى كنيسة ، واليهودى والألمانى يعملان فى متجر ، والتركى والأرمنى يسكنان فى دار ؛ ثم يلح على هؤلاء جميعاً بالخلط والمزج والتوحيد حتى تتشابه الألوان ، وتتعرب الألسنة ، وتتقارب الطباع ، وتتحد العناصر ، فيدخلوا صرحاء خلصاء فى هيكله النقى القوى المقدس

* * *

فى هذا اليوم وحده من دون أيام السنة تغلق القاهرة دواوينها ومدارسها ومتاحفها ومصارفها ومتاجرها ومصانعها وحوانيتها، ثم تخرج إلى الرياض والخلوات، خروج الحجيج إلى عرفات ؛ ولكنه حجيج وثنى لا يؤمن فى ذلك اليوم إلا بأفروديت وباخوس[1] ، فيتفيأون ظلال الروض ، ويتشربون أشعة الربيع ، ويستروحون أرج النسيم ، ويجتلون جمال الطبيعة المتبرجة فى الزهر والنهر ، ويستوعبون أسرار الحياة المبثوثة في السماء والأرض ، ويتطلقون من عقال الهم والوقار والكلفة ، فيطيشون كالفراش ، ويهتفون كالطير ، ويطفرون كالأطفال ، ثم تدركهم ضرورة الحياة فيجلسون للموائد حلقاً وسلاسل يتهنأون بضروب الآكال وصنوف الأشربة ، حتى إذا تضلعوا شبعاً وتحببوا رياً[2] قرت فيهم فورة المرح فأووا إلى أحضان الطبيعة الخادرة من حر الظهيرة . وحينئذ ترى أشتاتاً من خلق الله قد ضرب على آذانهم السكرى أو الكظة أو السكر أو الفتور ، فأصبح الناس والطير والشجر قطعاً من مادة الأرض لا يميز بعضها من بعض رقي النوع ولا سمو الفكر ولا غرور الفلسفة

* * *

لا أزال أشعر بحلاوة هذا الموسم فى القرية . فقد كان الشباب والأيفاع يعتقدون أن فى العشرة الأخيرة من شهر رمضان تفتح فى السماء (طاقة القدر) لمن كتب الله لهم السعادة ، وأن فى العشرة الأولى من المحرم تطوف (بغلة العشر) فى أعقاب الليل وهى موقرة بالذهب على من كتب الله لهم الغنى ، وأن فى يوم شم النسيم تهب نفحة من الفردوس لا يتنسمها إلا من كتب الله له القوة ؛ فكانوا إذا تنفس صبح ذلك اليوم أفعموا خياشيمهم بريح البصل ليدرأوا عن أعصابهم خمود العام كله ، ثم يخرجون إلى القنوات والنهيرات يستحمون فى مائها الجارى ، ويمشون هوناً على حفافى الحقول وضفاف الترع وحواشى البساتين يجمعون الفلية والحبق والورد وزهر النارنج وورق الليمون ، ثم ينسقون منها باقات يشدونها بأعواد السعد وسعف النخل ، ويدسون فيها أنوفهم من لحظة إلى لحظة ؛ ثم يقفون فى مهب النسيم الفواح يعبونه عباً بالخياشيم والحلوق لعلهم يجدون فيه تلك النسمة الهاربة من ريح الجنة فيمسهم منها (عرق الصبا) ، ثم يسيرون صامتين مستغرقين نشاوى يتشممون ذلك السر الإلهى المكنون فى أنفاس النهر ، وفى عبير الزروع ، وفى فوحة الرياحين ، كما يتلمس الكيميائى الخبير إكسير الحياة فى عصير العقاقير وحلب الأنابيق ومزيج الأشربة

فإذا أحسوا نشوة فى الروح وفتوة فى الجسم وقوة فى الأعصاب لطول ما استنشقوا الهواء الخالص ، واستيقنوا الأمل الخادع ، تسلقوا أشجار التوت لجنوا منه أطيبه ، وخضبوا أناملهم بجناه ، ونقشوا طواقيهم بصبغه ؛ ثم رجعوا إلى القرية يخطرون فى مطارف الصبا الغريض ، وكأن فى نفوسهم بالياً قد تجدد ، وفى نفوسهم ذاوياً قد انتعش . فيأكلون البيض الملون والخس الطرى والسمك المملح ، ثم ينامون وهم معتقدون أنهم ادخروا لبقية العام من القوة والصحة والفراهة مالا يهن على طول العناء وسوء الغذاء ومس المرض

ذلك شم النسيم بخصيصته ودلالته ، تراه فى المدينة والقرية يوم الصفاء المشترك والأنس الشاع . ولقد كانت لى فيه ذكرى أوذكريات لا تزال مشرق النور والسرور فى نفسى . وما كان أحب إلىّ أن أقصها عليك ؛ ولكن الصفحة قد نفدت ، وساعة الطبع قد أفدت ، ورئيس المطبعة يقول : هات !

احمد حسن الزيات

(١) أفروديت إلهة الجمال ، وباخوس إله الخمر

(٢) تضلع من الطعام امتلأ حتى تمددت أضلاعه . وتحبب من الشراب صار بطنه كالحب وهو الخابية

البحث عن غـــــد

– ٢ –

للأستاذ عباس محمود العقاد

أجملنا فى المقال السابق حديث مؤلف الكتاب مع الأستاذين الكبيرين شيخ الجامع الأزهر ومدير الجامعة المصرية

وقد تحدث المؤلف إلى فئة من المصريين النابهين غير الأستاذ المراغى والأستاذ أحمد لطفى السيد فقال عن الدكتور حافظ عفيفى باشا إنه أول سفير مصرى فى بلاط « سان جيمس » وإنه طبيب أطفال مشهور ، وكان وزيراً للخارجية فى سنة ١٩٢٨ وله مكانة عالية لبعده عن التحيز ووقوفه موقف الحيدة واطلاعه الواسع فى شؤون الثقافة المصرية

قال المؤلف : « ولما أخبرته بزيارتى للشيخ المراغى قال : إننى عظيم الإعجاب بالشيخ المراغى ، وهو عندى أصلح الرجال فى وقتنا هـذا لقيادة حركة الاصلاح فى التعليم الدينى . وقد ترك الطلبة هناك عادة الجلوس على الحصير وأصبحوا يجلسون على الكراسى ، وتعودوا أن يضعوا الكتب على المناضد بدلاً من وضعها على الركب ! وهـذا كل ما هنالك من الصبغة المصرية الحديثة . فهى لم تتجاوز ذلك إلى أساليبهم وأنظمتهم ولا إلى روح تعليمهم ودراستهم ، ولا يزال الأزهر حتى اليوم معنياً بالمراسم الدينية والآراء الجدلية . والشبان يضيعون هنالك سنوات غالية من أعمارهم كانوا خلقاء أن يتعلموا فيها أموراً أنفع لهم ولبلادهم على التعميم . أما مدارسنا المصرية فهى على نقصها لا تنى تتقدم تقدماً مطرداً فى سبيل التفكير العلمى الملائم لزماننا ، وهذا فى حين أن الأزهر لا يزال على سنة القرون الوسطى علماً وعملا . ومن تقاليده أن يقع الاختيار على معمميه من بين تلاميذه وطلابه المتخرجين فيه ، وسيظل متخلفاً ماداموا مصرين على هذه التقاليد . ولا رجاء لنا فى نهضة روحيـة صحيحة من جانب الدين ما دام المعلمون الدينيون بيننا ينشأون على غير النشأة المستنيرة التى ينشأ عليها الأساتذة الآخرون »

قال المؤلف : فسألته : ولماذا تحسب أن هذه النهضة الروحية ضرورية ؟

فقال : لأن الفلسفة المستقرة وراء الحياة المصرية لا بد لها من أساس روحية ، ولا تقوم هذه الأساس إلا على الإسلام ؛ وينبغى أن تقوم على إسلام صريح لا خرافة فيه . وإنما أعنى بما أقول أن تربيتنا الدينية يجب أن تكون على طبقة من الاستنارة تضارع تربيتنا فى الثقافة العامة . وقد جاءت قوة الإسـلام الدافعة فى عصره الذهبى من حقيقة واحدة : وهى أنه كان ديناً جد بسيط وجد واضح ، خلوا من التعقيد والإبهام ، فأخرج للدنيا ثقافة رفيعة ، وحول القبائل المتبدية فى فترة وجيزة إلى أمم متحضرة تعيش عيشة المدنية . ولابد للإسلام فى نهضته المقبلة من قيادة أتباعه مرة أخرى إلى الحضارة الصحيحة ؛ ولن يتسنى له ذلك إلا إذا اطرح الآراء الجامدة العتيقة والتجريدات المتخلفة من عقائد القرون الوسطى وليست هى من جوهر الدين فى شىء . عندئذ – وليس قبل هذا – يعود الإسلام وهو تلك القوة الروحية التى تفتقر إليها البلاد أشد افتقار »

فعاد المؤلف يسأل الباشا : وما هى إذن مسألة الغد فى مصر المقبلة ؟

فأجابه الباشا : مسألة الغد هى التعليم ثم التعليم كرة أخرى . وعلى أساتذتنا الدينيين والمصريين معاً ألا يقصروا تربيتهم على اقتباس العلم وحده ، بل يضيفوا إليه اقتباس الخلق والتهذيب . وعليهم أن يردوا الشعب إلى فضائل الشجاعة والصدق وحب الخير وحب الفن والمرفة ، ونظافة العقل والبدن ، وهى الفضائل التى كانت مبعث القوة فى الإسلام . وعلى شباننا المتعلمين وهم أشباه متعلمين أن يذكروا أبداً أن الأمة من الأمم لا يجوز لها أن تنعت نفسها بالتحضر والمدنية ما عاش أبناؤها على تلك الحالة المحزنة التى يعيش فيها الفلاحون ، ولا تغيير لها قبل انقضاء زمن مديد فى التثقيف والتهذيب »

وسأله المؤلف : ايوجـد فى مصر أناس عندهم من البصيرة والشجاعة الأدبية ما يتطلبه التصدى لإصلاح البـلاد والجهر بحاجاتها ؟

قال الباشا : نعم . هنالك أناس من هؤلاء ، وأذكر لك على

سبيل المثال أسماء أصدقائى لطفى السيد وحسين هيكل ومصطفى وعلى عبد الرازق وطه حسين

* * *

وهنا انتقل المؤلف إلى رواية الحديث الذى جرى بينه وبين الدكتور طه حسين ، وقد بدأه الدكتور بكلام يدل على تغير الشبان من الوجهة الدينية

فسأله المؤلف : أترى أن الدين لا يدخل عندكم فى حياة الشباب ؟

قال الدكتور : على النقيض . إن له لدخلا فى حياتهم ، لأن للشباب تناقضاً معروفاً ، ومن تناقضه عندنا مسلكه فى أمر الدين ، فالشبان المصريون فى مقاومتهم للنفوذ الأجنبي ، وفى شعورهم الوطنى يصدرون عن عقائد آبائهم وتقاليد أسلافهم . ولم هذا ؟ لأن القرآن فى الشرق الأدنى هو الأساس الوحيد الذي يقام عليه بناء أمة ؛ وقد أصبح شبابنا المصريون فى حياتهم الدارجة شعبة صغيرة منقطعة عن سائر الأمة . إلا أنهم يجدون أنفسهم فى القرآن على ملتقى واحد مع كل فلاح وكل بدوى فى الصحراء ؛ وهم – باعتمادهم على القرآن – يهيئون لسواد الجماهير أن يحالفوهم فى المعركة السياسية ، وإنما يأخذون من القرآن أسلحتهم السياسية ولا يستمدون منه عتاد الروح »

فقاطعه المؤلف سائلاً :

وما هو موقفهم إذن من الناحية الروحية ؟

فأجاب الدكتور : « أما من الناحية الروحية فهم واقفون فى العراء . لم يهضموا فلسفتهم العقلية الحديثة لأنهم تلقوها فى الغرب بعقولهم ولم يشركوا فيها قلوبهم وضمائرهم ، ولكنهم قد انحرفوا عن جادة آبائهم فهم بمعزل عن كل مَعْلَم من المعالم الروحية ، وإن كان هذا لا يعنى أنهم بمعزل عن الدين فى آمالهم ومخاوفهم »

فسأل مؤلف الكتاب : أتحسب إذن أنهم يثوبون إلى الدين فى أزماتهم الحاسمة ؟

قال : فضحك الدكتور طه حسين وقال : هـذا ما أعنيه تماماً ، فقبل الدخول إلى مشرحة الجراح ، وقبل الدخول إلى حجرة الامتحان ، يثوب المتطرف منهم فى الإيمان بالعقل إلى الإيمان بقوة فوق متناول التفكير ، أو بقوة تعين الجراح وتلهم الأستاذ الممتحن وتوحى إلى المسئول كيف يجيب ، ويعود لجأة إلى اسم الله ... »

* * *

وبعد مناقشة فى رأى الشيخ المراغى وفيما يحسن بالرجل المصرى أن يتخذه من موقف فى أمور الدين ختم الدكتور حديثه قائلاً ما معناه : إن المصريين فرديون متفرقين ، ولكنهم فى المجتمع متساوون مسلسون

* * *

وبين الكبراء الذين حادثهم « روم لاندو » على ماهر باشا وأحمد حسنين باشا قبل أن يندب الأول لرآسة الديوان الملكى

فكانت خلاصة الحديث الذى أفضى به على ماهر باشا أن الشعور الوطنى قد طغى بعد الحرب على كل شعور آخر ، وأن الجيل الحديث سيعود كرة أخرى أدراجه إلى حظيرة الدين ، وأن أناساً من أبنائه يتعطشون – حتى فى هذه الآونة – إلى مورد للدين يكشفونه بأنفسهم لأنفسهم وإن كانوا لا يزالون قلة بين المجموع

قال على باشا : « نحن عرضة لكثير من الأفكار ، وفى الحياة المصرية حركات كثيرة النقائض والأضداد ، والعلم بالنتائج مستحيل . إلا أننى أحسب أننا على حق حين نرى أن النزعة الدينية أقوى فى طائفة من الجيل الحديث مما كانت قبل بضع سنوات »

وسأل الأستاذ لاندو : « ماذا يصنع الآن لتحويل الوجهة التى كانت منصرفة كلها إلى الناحية السياسية ؟ »

فأشار على باشا إلى الخطة التى أعدها حين كان على رأس الحكومة لإنشاء معسكرات فى أرجاء البلاد يتعلم فيها الشباب الرياضة والأخلاق الرياضية ويأوون إليها فى كل شهر أربعة أيام ، ويتلقون فيها دروساً ومحاضرات عامة فى علم الاجتماع وشؤون الثقافة ومعارض التاريخ

ولما سأله المؤلف عن مصير هذا الاقتراح ، قال : إن الوفد أبطله حين تولى الحكومة . وعقب المؤلف قائلاً : « إن من تقاليد السياسة المصرية – أو السياسة فى معظم الأقطار الشرقية – أن الحكومة الجديدة تبطل ما استطاعت من أعمال الحكومة السابقة

ثم سأل : « ولكن الوفد له هو أيضاً مقترحاته للسمو بالجيل الحـديث وتحويل جهوده . أليس كذلك ؟ فقد سمعت بالعناية المبذولة فى الألعاب وضروب الرياضة ! »

قال الباشا : نعم . إلا أن النظام الحاضر يحمل باله قبل كل شيء إلى إنجاب « الأبطال » الذين يحرزون الجوائز فى المباريات الدولية ولا يعطى الجمهـور نصيبه من الرعاية ، ولا يلتفت إلى الأخلاق كما يلتفت إلى الأبدان . وما كان التعليم المتجه إلى إحياء الحاسة الدينية الاجتماعية يوماً من الأيام شاغلاً بنفع الأحزاب السياسية فى غايتها من الدعاية ، فلا سبيل إلى هذا التعليم إلا على أيدى حكومة غير حزبية أو حكومة قومية »

***

أما أحمد حسنين باشا فقد بدأ الكلام معه على تعليم صاحب الجلالة الملك فاروق . ثم استطرد إلى الساحة الدينية ومذهب الباشا فيهـا ، وهو مذهب يشبه مذهب محي الدين بن العربى . وقد كانت لرحلاته فى الصحراء يد قوية فى هدايتـه إلى تلك الطريق الروحية

سأله الأستاذ لاندو : لقد أخبرت أن الملك يؤدى جميع فروض الصلاة بانتظام ، فهل تعتقد أن صاحب الجلالة ذو سليقة دينية ؟

فقال الباشا : « أعتقد ذلك . وقد قال لى منذ أيام فجأة خلال الحديث : إنه يشعر براحة حقيقية فى الصلاة . وهذا شيء جدير بالتنويه والملاحظة من شاب يقوم بأعباء الملك فى سن الفتوة ، ولا سيما وصاحب الجلالة غير مطبوع على الانزواء أو الخيالات العاطفية ، ولكنه نشيط إلى الرياضة لا يميل إلى النزعات الخفية الغامضة ، وهو يحمل مصحفاً صغيراً لا يفارقه ؛ وأعلم أنه شديد الحب له والإيمان به »

***

وسنعود فى المقال التالى إلى التعقيب على أمثال هذه المباحث التى يتصدى لها بعض السائحين ، وإلى بيان الحقيقة فيما يلمحونه أو يخيل إليهم أنهم يلمحونه من دلائل الحياة الروحية وبواعث التغيير والتجديد فيها .

عباس محمود العقاد

من برجنا العاجي

لبعض القراء ملاحظات تدل أحياناً على جهل مروع بطبيعة الأدب . من ذلك أنهم يعيبون على الأديب تحدثه عن نفسه . أمثال هؤلاء القراء لا بد أن يكونوا من تلاميـذ المدارس أو المتخرجين فيها حديثاً . فهم يخلطون بين « معلم المدرسة » وبين « الأديب الفنان » . فمهمة « المعلم » الأولية أن يلقن أصول المعارف وأن يفرغ فى أذهان النشء مادة بعينها بغير أن يكون لشخصه دخل فى الأمر . أما « الأديب أو الفنان » فلا يلقن شيئاً ولا ينبغى له . لأنه يخاطب قوماً مفروضاً فيهم أنهم قد جاوزوا مراحل الدرس ؛ فهو يخرج لهم عصارة العلوم والمعارف والتجارب مقطرة من خلال « نفسه » . إن كل ما نطلبه ونرجوه من رجال الأدب والفن أن يحدثونا عن كل خلجة من خلجات نفوسهم ، وكل دقيقة من دقائق حياتهم ، وكل لمحة من لمحات أبصارهم ، وكل ناحية من نواحى إحساسهم . إن « نفس » الأديب العارية هى كل ماينبغى له أن يضعه تحت أنظارنا . ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقاً بأديب . فالأديب هو الآدمى الوحيد الذى خلق لـكى يفتح لنا نفسه لنرى من خلالها النفس البشرية قاطبة . ويتحدث لنا عن نفسه فنرى من خلال حديثه كل تجاريب الإنسانية الشاعرة . وإن كل رجال الأدب العظام ليسوا إلا آدميين حدثونا طول حياتهم عن أنفسهم ، بوسائل شتى . وأما كقارىء لا يروقنى شيء مثـل قراءة المذكرات التى يكتبها الأدباء والعظماء عن حياتهم الخاصة . والاعترافات والرسائل التى تتناول مسائل تمس أشخاصهم . فنحن فى تلك الكتابات المجردة عن أثواب التكلف والصناعة نستطيع أن نهبط إلى أغوار تلك النفوس الرحبة الغنية ، كما يهبط الغواص فجأة إلى أعماق البحار ، فيفاجىء اللآلىء فى أصدافها لم تمسها بعدُ يد غريبة ، تنتزعها لتدخل عليها بهرج الصاغة . إن الفنان إذ يحدثنا عن نفسه وفنه وحياته الخاصة إنما يقدم لنا مادة فنية غير مصنوعة . إنه يترك رداءه الرسمى ليخرج إلينا بثياب البيت فى غير كلفة كأنه صديق ، وهذا منتهى الاخلاص منه ومنتهى التكريم لنا ؟

توفيق الحكيم

مظاهر القسوة والرحمة
في الحضارات
للأستاذ عبد الرحمن شكري

أشرت في مقالة (مجد العرب والاسلام)[1] إلى محاولة بعض المؤرخين الأوربيين إصغار مظاهر القسوة في الحضارات الأوربية وإعظامها في الحضارات الشرقية . ولسنا نريد أن ننكر مظاهر القسوة في الحضارات الشرقية ، وإنما نريد ألا يكون هناك لبس ، وألا تختفي الحقيقة التاريخية ، وهي أن الحضارات الأوربية لم تكن مظاهر القسوة فيها أقل من مظاهرها في الحضارات الشرقية . فكل تمثيل قرأنا عنه في حضارة شرقية قرأنا مثله في الكلام عن الحضارات الأوربية . ولا يمكن تقصى كل مظاهر القسوة في الحضارات ؛ ولا يفيد الانسانية إخفاء الحقيقة ، والمؤرخون الذين يخفونها قد يفعلون ذلك بحسن نيسة لأنهم يغالطون أنفسهم فيكونون كمن يجهل الحقائق وإن كانت ماثلة أمامه . وهذه ظاهرة كثيراً ما تشاهد في الحياة فيحسبها الناظر سوء نية وكذباً متعمداً وما هي كذلك ، وإنما هي المغالطة للنفس التي تجعل المؤرخ يفرق بين النفوس البشرية ونزعاتها في الشرق ، وبين النفوس البشرية ونزعاتها في الغرب . كما يفرق المؤرخون في بعض الأحايين بين العقول البشرية وملكاتها وطرق تفكيرها في الشرق وبينها في الغرب ، ويبالغون في اختلاف طرقها بحسن نية ، وإن كانت المبالغة خطأ في البحث والاستقراء

كنا نقرأ عن الحضارة الإغريقية أنها منبع الرحمة والنور في العالم القديم والحديث ؛ وكان بعض المؤرخين لا يسهبون في وصف مظاهر القسوة فيها ، وإن كانت موصوفة في مراجع التاريخ ، وإنما هم يهملون وصفها عند إثبات أن الحضارة الإغريقية منبع الرحمة والنور في العالم ، فلا يذكرون أن تلك الحضارة كانت مؤسسة على عرق جبين الأرقاء ودمائهم ، ويهملون ذكر ما كان يحدث في المحاكم الاغريقية إذا ادعى أحدهم دعوى على رجل وأنكر هذا الرجل الدعوى وجيء بالأرقاء الذين يملكهم هـذا الرجل المنكر وعذبوا بأصناف من العذاب القاسي الشنيع كي تؤخذ اعترافاتهم وهم يعذبون حجة على سيدهم . وكان السيد إذا اعترض على تعذيب أرقائه عُدَّ معترفاً أو شبه معترف بخوفه من أن يبوح أرقاؤه وهم يعذبون بمـا يؤدي إلى إدانته . ومن أمثال تلك القسوة في الحضارة الاغريقية ما كان يلاقيه الأرقاء في المحاجر والمناجم ، ومثلهم مثل الأرقاء في مناجم الرومان . ويكفي وصف ما لاقاه جنود أثينا الأسرى عندما حاولوا غزو سراقوسة في صقلية وفشلوا واستخدموا في المحاجر والمناجم أرقاء . ومن مظاهر القسوة أيضاً معاملة المدينة الظافرة للمدينة المغلوبة على أمرها إذا ثارت على سيدتها ، فقـد كانت المدينة الظافرة تقضي في بعض الأحايين بقتل جميع الرجال وبيع الأطفال والنساء في سوق الرقيق . وهذه المعاملة تذكرنا بمـا كان الاغريق في العصور الحديثة يشنعون به على الأتراك ومعاملتهم لرعاياهم من الاغريق ؛ إلا أن تلك المعاملة القاسية القديمة كان يعامل بها الاغريق الاغريق . وحتى في المدينة الواحدة كان الحزب السياسي إذا ظفر عامل الحزب المخاصم له أشنع معاملة . وهذا كان حال الحضارة الاغريقية التي كانت بالرغم من ذلك منبع الرحمة والنور في تاريخ الحضارة الأوربية . فإذا انتقلنا إلى حضارة الرومان وجدنا أن مظاهر القسوة لم تكن أقل منها في الحضارة الاغريقية ، فكان الأرقاء يعاملون معاملة قاسية بالرغم من القوانين التي أصدرت لحمايتهم . وكانت الأحزاب السياسية يقسو بعضها في معاملة بعض قسوة شنيعة . وكان الظفر الحربي الروماني نذير القسوة الشنيعة حتى بعد ذلك الظفر عند الاحتفال به وبعد الاحتفال به . وكانت الخوازيق التي يُعَيَّرُ بها الأتراك والشرقيون من العقوبات الرومانية ؛ وكذلك الصلب والتمثيل بالمصلوبين وهم مصلوبون . وكانت ميادين الكوليسيوم معرضاً لجنون قسوة النفس الانسانية حتى صارت من ملذات الجمهور الروماني رؤية الوحوش وهي تفترس أجسام الأحياء وتمزقها تمزيقاً ، ورؤية حرق الأحياء كما كان المسيحيون يُحرَّقون . ولم تكن مظاهر القسوة في الحضارة مقصورة على حضارة أوربا الوثنية ، بل كانت على أفظع شكل حتى عند المتدينين من القائمين بأمور محاكم التفتيش الذين كان بعضهم يبكي رحمة بمن يعذبونهم فلا يزيدهم بكاء الرحمة إلا رغبة في تعذيب ضحايا تلك المحاكم اعتقاداً أن ذلك التعذيب وأن تلك القسوة رحمة بالضحايا . ويقولون إن تعذيبهم في الحياة الدنيا يقلل من عذابهم في الآخرة ، فيكون

(١) انظر العدد ٣٤٦ من الرسالة

تعذيبهم فى الحياة الدنيا رحمة بهم ، ولم تكن مظاهر القسوة مقصورة على طائفة دينية دون الطوائف الأخرى بل اشتركوا فيها جميعاً . كما أن القوانين التى كانت تطبق فى الامور غير الدينية كانت مثقلة بروح القسوة والتعذيب. ومن العجيب أن المؤرخين الذين ينعون على الدولة الاسلامية تنفيذ الحدود ينسون أن القوانين الاوربية والمحاكم الأوربية كانت إلى قبيل الثورة الفرنسية توقع عقوبات هى نفس الحدود التى ينتقدونها فى الدولة الاسلامية . فاننا نقرأ فى مؤلفات ماكولى وغير ماكولى من المؤرخين عن قطع الأيدى وجدع الأنوف وسمل الآذان وغير ذلك من أجزاء الجسم ، وقراءة وصف العقوبات التى وقعت بعد فشل ثورة دوق مونموث تكفى للدلالة على أن المؤرخين ينسون ما كان فى الحضارات الأوربية من مظاهر القسوة عند ذكرها فى الحضارات الشرقية . فاننا نقرأ كيف كانت أجسام الأحياء تقطع وتنصب أجزاؤها على النصب والمبانى والأعمدة وعند ملتقى الطرق ، فمن رءوس وأحشاء وأرجل وأيد منصوبة نتنة كانت تفسد الهواء فى انجلترة بعد ثورة دوق مونموث وغيرها من الثورات الفاشلة . والمستعمرون الأوربيون فى أمريكا حتى المتطهرون منهم لم يقصروا فى مظاهر القسوة . وقد استعرض فان لون المؤرخ الأمريكى مظاهر القسوة فى الحضارة الأوربية والأمريكية فى كتابه المسمى (تحرير الانسانية) ولا تزال آلات التعذيب فى المتاحف الأوربية الخاصة بها تدل على أن النفوس فى أوربا لم تكن أقل قسوة من النفوس فى الشرق ؛ ولا نريد ذكر هذه الحقائق للغض من فضل الحضارة الأوربية . وإنما نريد تصحيح ما يشيعه بعض المؤرخين بحسن نية أو بسوء نية فيضلل ما يقولون ويؤدى إلى تخليد قسوة النفس الانسانية ، وربما كانوا أبعد الناس عن الرغبة فى تخليدها

والحقيقة أن النفس الانسانية إذا غضبت قست وأجرمت حتى ولو كان غضبها للحق أو الحرية أو الوطنية أو كرهاً للظلم . ولعل أكبر انتصار للنفس الانسانية فى المستقبل يكون انتصارها على نفسها بمنعها من الاجرام والقسوة الهمجية الوحشية عندما تغضب للحق أو الحرية أو الوطنية أو كرهاً للظلم . أنظر مثلا ما ارتكبه ثوار الثورة الفرنسية من شرب للدماء، وتمزيق أجسام الأحياء، وأكل للحوم البشرية وسلخ لجلودها والتذاذ باراقة الدماء والفخر بما كانوا يسمونه الغنائم والأسلاب من أحشاء نتنة ورءوس كانوا يضعونها على الرماح . ولم يفعل كل هذا أناس شرقيون ولا أناس من قبائل نيام نيام فى أواسط أفريقيا بل أناس غضبوا للحرية وكرهوا الظلم وكانوا يدعون إلى الحرية والأخاء والمساواة وإلى محو الشر . وهذه الثورة الفرنسية كانت مقدمة للديمقراطية الحديثة ، ولكن بعد أن كره العالم اسم الحرية زمناً وارتضى الحكومات المطلقة زمناً بسبب هذه الفظائع وهذه النذالة فى الاجرام والقسوة

ثم انظر إلى فظائع الحروب الاستعمارية وفظائع الحرب الكبرى فقد قاسى من أجلها من المحاربين ومن الأطفال والنساء آلاماً كثيرة عدد لم يقاس مثله فى الحضارات الشرقية بشهادة بعض المؤرخين الموثوق بقولهم وبشهادة المفكرين مثل هالدين وليونارد وولف

ثم انظر إلى مستقبل الانسانية وما هو منظور أن تقاسيه من الويلات بسبب الحضارة الأوربية وجشعها ومخترعاتها مما يُنسى المفكر كل مظاهر القسوة فى الحضارات الشرقية التى ينتقدها بعض المؤرخين الأوربيين . والحقيقة أن النفس الانسانية فى السلم والحرب وفى أعمالها وأقوالها اليومية لا تزال أكثر ولوعاً بالقسوة مما يظن المستعرض لها بنظرية سطحية عجلى ، كما هى أكثر ولوعاً بالمجون وقصصه وأعماله مما يظن المستعرض للأكاذيب المقررة التى هى طلاء الحضارة والتى تخفى مظاهر القسوة والمجون فى أعمال النفوس البشرية

وإنى ما ذكرت تنور المتوكل الذى عذب فيه وزيره محمد ابن عبد الملك الزيات إلا ذكرت الغلاف الحديدى ذا المسامير الذى كان يوضع فيه الأحياء فى أوربا . وما ذكرت الرقيق فى الدول الشرقية إلا ذكرت أن الرقيق كان شائعاً فى أوربا وأمريكا إلى عصور قريبة ، وإلا ذكرت أنه عند ما بدأ الرحماء يدعون إلى تحرير الرقيق ووجدوا نصراً من رجال الدين فى أوربا ألفوا أعداء من رجال آخرين من رجال الدين كانوا يتذرعون بآيات من الكتاب المقدس من العهد القديم كى يزكوا بها الاستعباد ، وذكرت ما كان يقاسيه الرقيق فى الحضارات الأوربية مما يطول شرحه ووصفه ، وذكرت أن الكنيسة نفسها كانت تشترى الرقيق من الغلمان الصغار الملاح وتخصيهم، وكانوا يسمون خصيان الكنيسة ؛ وكانت تفعل ذلك كى يرق صوتهم فيرتلون الآيات فى الصلوات

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ٢٧ –

فترة جمام

نفض الرافعي يديه من المعركة بينه وبين العقاد ، ثم فاء إلى نفسه ، وعاد إلى دار كتبه يطالع ويقرأ ويتزوّد ... واختفى اسمه من الصحف والمجلات أشهراً ، كان في أثنائها يتهيأ لإتمام كتابه « أسرار الإعجاز » ، ويعمل في الوقت نفسه على جمع ما نشر من المقالات في الفترة السابقة وترتيبها ، ليخرجها كتاباً يسميه « قول معروف ... »

على أن عنايته بشأن هذين الكتابين : أسرار الإعجاز ، وقول معروف — لم يمنعه أن يكون له في كل يوم ساعات محدودة للقراءة والاطلاع . وكانت هـذه الساعات المحدودة في أكثر لياليه تمتد من المغرب إلى منتصف الليل . وأستطيع أن أقول : إن هذه الفترة على ما كان يبذل فيها من جهد ، كانت فترة جمام وراحة ، لم ينعم بمثلها فيما بقي من حياته . وكنت بصحبته يومئذ قريبَ العهد ، ولكني كنت ألصقَ أصحابه به ؛ فكان لي معه كل يوم ساعات : يقرأ لي وأستمع إليه في داره ، أو أماشيه في الطريق أو أجالسه في القهوة ، أو أصحبه إلى السينما . وكان عليّ في هذه الفترة وفيما بعدها من الزمن ، أن أقرأ ما يهدَى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التي يجدي عليه أن يقرأها ، ضنًّا بوقته على قراءة ما لا يفيد . وكان لي وله في ذلك فائدة أيُّ فائدة ؛ وكثيراً ما كان يدفع إليّ بعض ما يرد إليه من الرسائل ، لأرى رأيي فيه وأشير عليه بالجواب أو أتولى ذلك بنفسي . وكانت هذه الفترة ذات أثر كبير في تكويني وتوجيهي في الأدب توجيهاً لم أكن أقصد إليه ؛ كما تأثر هو بصحبتي في هذه الفترة تأثُّراً وجّهه في أدب الانشاء توجيهاً لم يكن يُعرَف به منذ نشأ في الأدب قبل ذلك بثلاثين سنة ؛ فبدأ أسلوبه أكثر استواء عند عامة القراء ، وكان قبلها يُتّهَم بالغموض والتعقيد ؛ كما عالج القصة فنجح فيها إلى حد بعيد ، إذ كانت القصـة — وما تزال — أحبّ ألوان الأدب إليّ ، على حين كان الرافعي لا يؤمن بفائدة القصـة ولا يعترف بخطرها بين أبواب الأدب الحديث . فما هو إلا أن حملته على محاولتها فأنشأ قصته الأولى ؛ ثم كأنما اكتشف نفسـه من بعدُ فصار ماينشىء من القصص هو أحبّ منشآته إليه ، وخطا بها إلى نفوس القراء خطوات ...

ومن طريف ما يُذكر في هـذا الباب أنني كنت أنشئ القصص لمجلة الرسالة ، لا أكاد أعنى بشيء غيرها من موضوعات الأدب ، وكان حُسن وقعها عند القراء يدفعني إلى الاجادة والاستمرار ؛ ولكن قارئاً واحداً كان يعيب عليّ ما أكتب ، ولا يرضى مني أن تكون القصة هي كل ما أعالج من فنون الأدب ، وكثيراً ما كان يقول لي : « يابني ، إن لك بياناً وفكراً ومعرفة ، فلماذا لا تحاول أن تكون أديباً ؟ إنه لا يليق بك أن تكون القصص هي كل ما تحاوله من ضروب الإنشاء . وإن فيك استعداداً لأكثر من ذاك . . . ! » وما زال يلحّ عليّ ويكرر هذه اللامة حتى وقع في نفسي أنني أسيء إلى نفسي بمحاولتي أن أكون قصصياً ؛ فانصرفت عن القصة ، وكانت أحبّ إليّ ، إلى فنون أخرى من الأدب ، إلا ما أنشىء من « القصص المدرسية » التي

بصوت عذب شبيه بأصوات النساء . وكان بعضهم يهلك من عذاب الخصى

وبعد فانــ مثل المؤرخين الأوربيين الذين ينكرون أو يصـغرون من أمر مظاهر القسوة في الحضارات الأوربيـة ويكبرون أمرها في الحضارات الشرقية مثل كل إنسان في هذه الحياة الدنيا ، فان كل إنسان في هذه الحياة الدنيا يصغر ويُهوّن من أمر مظاهر القسوة التي ترتكبها نفسه ويكبر من أمر مظاهرها الصادرة عن نفوس غيره من الناس . وهو يفعل ذلك إما غفلة وعن حسن نية ، وإما يفعل ذلك وهو يدري ما يفعل . ولن تنصلح الانسانية إلا إذا امتنع تضليل النفس هذا

عبد الرحمن شكري

أؤلفها للتلاميذ على أنها وسيلة من وسائل التربية لا باب من الأدب . ثم لم يمض بعد ذلك إلا قليل ، حتى كانت القصة هي أكثر ما يعالج الرافعي من أدب الانشاء ، وكان له فيها فَوَاقٌ منبسق . وحلَّت القصة محلها من تقديره بين أبواب الأدب ..!

وإذا كان في أذني الرافعي ذلك الوقر الذي يقطعه عن دنيا الناس ، فان أسلوبه في الكتابة كان بعيداً عن فهم الكثير من ناشئة القراء . فلما اصطفاني بالودّ ، أخذت على نفسي أن أكون أذنه التي يسمع بها ما يقال عنه ، وما يرى القراء في أسلوبه ، فكنت إذا جلست إليه ليملي عليّ أحاوره فيما يدق على الأفهام من أسلوبه ، وما تنبو عنه أسماع القراء . ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها أدنى إلى الفهم وأخف على السمع . وكان ينكر ذلك عليّ أول أمره ، بما فيه من اعتداد بنفسه وكبرياء ، وكان أحياناً يوشك أن يغضب ، وأنا أتلطف له وأحتال عليه ؛ ثم لم يلبث أن رضى ذلك مني ، فكان يلح على العبارة من المقال ، ثم يسألني : « ماذا فهمت مما كتبت ؟ » فاذا كان يطابق ما في نفسه مضى في إملائه ، وإلا عاد إلى ما أملاه بالتغيير والتبديل حتى يتضح المعنى ويبين المراد . وبدا في النهاية أن يسميني — على المزاح — : العقل المتوسط من القراء ... !

* * *

لم يُنشر للرافعي في هذه الفترة شيء ذو بال ، إلا أحاديث كان يمليها على بعض المرتزقة من كتّاب الصحف الأسبوعية . وكان له طائفة من هؤلاء الكتاب يعطف عليهم ويعينهم على العيش ، فكانوا يفدون إليه في المحكمة ليسألوه حديثاً فيملي عليهم جوابه ثم يذهبون لينشروه حيث يشاءون ويقبضوا أجره

في هـذه الفترة ، وكَلَ إليه الأديب حسام الدين القدسي الورّاق تصحيح كتاب « ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري ، وكان قد وقع منه على نسخة خطية فطبعها بأغلاطها وتصحيفها ، ثم بدا له قبل أن يتم طبع الديوان أن يلجأ إلى الرافعي ليصحح له أغلاطه ويتم نقصه على أن ينشره في الجزء الأخير من الكتاب

وقبل الرافعي هذا التكليف على قلة أجره ، ليقرأ الكتاب قبل أن يقرأه الناس ، وليستمتع بلذة المعاناة في تصحيحه وتصويب خطئه ؛ وإنها لرياضة عقلية ممتعة ، لا يستشمرها ولا يقوى عليها إلا القليل من الأدباء . ومضى في هذا العمل شهراً أو يزيد ، وكنت معه فيه ، ثم انتكثت المعاهدة التي كانت بينه وبين القدسي فترك له كتابه بعد أن أصلح منه جزءاً غير قليل . وقد استطعت في تلك الفترة التي صحبت فيها الرافعي وهو يحاول تصحيح الكتاب أن أعرف مقدار اطلاعه وسعة علمه وقوة بصره بأساليب العربية ؛ وقد رأيت منه في هذا الباب أشياء عجيبة من قوة الحافظة ، وسرعة الاهتداء إلى مراجع البحث ، ومهارة الاستدلال على مواضع النقص ، حتى لكأنني بإزاء مكتبة دقيقة الترتيب منتظمة التبويب ما شئت من بحث تهدّتك إليه قبل أن تبحث عنه . على أنه كان أحياناً يعرف موضع النقص من الكتاب ثم لا يهديه البحث إلى تتمته ، فيضع فكره موضع فكر المؤلف ليستقيم المعنى ويتساوق الكلام وأكثر ما كان يقع ذلك في الشعر المشطور . وقد حدث مرة أن ظلّ الرافعي يبحث يوماً كاملاً عن تمام بيت من الشعر في مظانه من كتب العربية ؛ فلما أعياه البحث جعل تمامه من نظمه ثم مضى إلى تصحيح ما بعده من الكتاب . وفجأة ترك ما هو فيه وقال : « اسمع ! ناولني الكتاب الفلاني » فمددت يدي إلى موضعه من المكتبة فناولته إياه ، فأخذ يتصفحه قليلا ثم قال : « لقد وجدته ... هذا هو البيت الذي كنت أبحث عنه وتمامه . عد إلى ما كتبت من قبلُ لتصححه ! » وعدت إلى ما كتبت ، ورجعت النظر في الكتاب الذي بين يديّ ، فاذا تمام البيت فيما كتبت وفي الكتاب سواء ، لا يختلفان إلا في حرف الجر ... أكان فضل هذا إلى ذاكرة الرافعي ، أم إلى قوة بصره بالشعر وبأساليب البيان ؟

* * *

ولم يكتب الرافعي في هذه الفترة التي سبقت اشتغاله بالرسالة ، إلا بضع مقالات في البلاغ ؛ وكان لكل مقال حافزه وداعيه :

كان السيد حسن القاياتي يكتب في جريدة « كوكب الشرق » كلمات في موضوعات شتى من وحي الساعة وخواطر الحياة . فبدا له يوماً أن يكتب في الموازنة بين قول الله تعالى : « ولكم في القصاص حياة ... » وقول العرب : « القتل أنفى للقتل ! » فازلق إلى رأي ... وكان محرر الكوكب في ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين ، وهو من هو عند الرافعي في

دينه وفى أدبه وفي إيمانه بقدس القرآن ... ولم يكن الرافعى يواظب يومئذ على قراءة كوكب الشرق

وجاء البريد ذات صباح إلى الرافعى برسالة من صديقه الأستاذ محمود محمد شاكر ، يلفت نظره إلى ما كتب الأستاذ القاياتى وإلى ضلاله فى تفضيل الكلمة الجاهلية على آية القرآن .. ودفع إلىّ الرافعى برسالة الأستاذ شاكر وهو يقول : « أتصدّق هـذا ؟ أيجرؤ أحد أن يقولها ، أم هى مبالغة وتهويل من محمود ؟ أم هو لم يفهم ما كتب الكاتب المسلم وحمل كلامه على غير ما يريد ؟ »

ثم بعث فى طلب الجريدة التى نشرت هذه الضلالة فجىء بها . فما كاد يقرؤها حتى اربدّ وجهه وبدا عليـه الغيظ والانفعال ، ودار لسانه بين شدقيه بكلام ، ثم لم يلبث أن نهض مغضباً إلى الدار قبل موعده ، فانقطع عنى يومين ثم أرسل يستدعينى إليه ، فأملى علىّ مقالة طويلة بعنوان : « كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة ! »

وكانت مقالة من عيون مقالات الرافعى ، نشرتها البلاغ فى صفحتها الأدبية . وقد أورد فيها بضعة عشر رأياً فى بيان إعجاز الآية ومبلغها من البلاغة بإزاء الكلمة الجاهلية ، وقد جعلها من بعدُ فصلاً من شواهد كتابه « أسرار الاعجاز » الذي لم يطبع بعد ...(1)

وقرأ الأستاذ القاياتى مقال الرافعى فى الرد عليه ، فاقتنع بها فيما بينه وبين نفسه ، واعترف على نفسه فى خلوته ، ولـكنه لاذ بالصمت ، وكانت كرامته الأدبية أعز عليه من كرامة القرآن ، فلم يردّ عليه ولم يعترف علانيةً بما كان من خطئه فيما انزلق إليه ..!

وفتح مقال الرافعى أبواباً من القول لطائفة من الأدباء ؛ إذ كان فيما ردّ به الرافعى أن كلمـة « القتل أنفى للقتل » ليست جاهلية كما يعرف قراء العربية عامة ، ولـكنها نشأت فى العصر العباسى لمثل ما استعملها له الأستاذ القاياتى فى معارضة القرآن ، وأسند مخترعها إلى حكيم الجاهلية أكثم بن صيفيّ ليتمّ له قصده ؛ وجازت دعواه على قراء العربية حتى كشف الرافعى عن زيفها بعد ألف سنة !

(1) نحسن الظن كثيراً إذا زعمنا أن هذا الـكتاب الفريد فى موضوعه وفى تأليفه ، سيلقى من عناية أدباء العربية ما يحملهم على محاولة طبعه فى يوم قريب ... !

كان تاريخ هذه الـكلمة ميداناً للقول والمعارضة أياماً بين الرافعى وبعض الأدباء ، ثم لم ينته إلى خاتمة ؛ إذ كان الذى يعارض الرافعى فى موضوعها ليس أهلاً لمناظرته ، فلم يلبث أن شعر بالإعياء من أول شوط ، فـكتب إلى الرافعى رسالة خاصة فى البريد يستعفيه ويعتذر إليـه أنه مشغول البال بالاستعداد للزواج ...

* * *

وفى هذه الفترة تم إنشاء « المجمع اللغوى » وكان الرافعى يمنى نفسه بأن يكون من أعضائه ، فحال بينه وبين ما يتمنى أنه لا يسمع ؛ وإن لم يمنعه أن يكون عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وقد اختير له هو والمرحوم حافظ بك إبراهيم قبل ذلك بسنوات ، فلم يشهد جلسة من جلسانه ، ولم يشترك فى قرار قرره ، ولم يبعث إليـه برسالة واحدة فى موضوع من موضوعات العلم العربى ...

وساء رأى الرافعى فى المجمع اللغوى من يوم إنشائه ، ولم يمنعه من الحملة عليـه أنه كان موعوداً بأن يُختار فيه عضواً مراسلاً كما أنبأه صديقه فارس نمر باشا عضو المجمع

وافتتح المجمع ، وكان أول محرراته الأدبية برقية بالشـكر إلى المرحوم الملك فؤاد

ولقيت الرافعى ذات مساء ؛ فإذا هو يرفع إلىّ جريدة البلاغ قائلاً : « إقرأ ؛ هذا أديب صغير يهاجم المجمع اللغوي فى يوم إنشائه ، ويزعم أنه لم يستطع أن يكتب برقية بريئة من الخطأ ليشكر بها منشئه ... ! »

وقرأت ، فإذا نقد عنيف ، وتهكم مر ، وسخرية لاذعة ... كانت كلمة صغيرة ولـكنها ذات شأن ، وقد اختار كاتبها أن يكون توقيعه (أديب صغير) مبالغـة فى السخرية والتهكم ... وأخذ الـكاتب على المجمع بضع غلطات لا يتنبه لمثلها إلا أديب دارس ، له فى العربية مكان ...

وقال الرافعى : « ماذا رأيت ؟ » قلت : « نقد مر لا يبلغ به هذا المبلغ على إيجازه إلا أديب كبير ! » قال : « فمن تظنه ؟ » وكان سؤاله مشعراً بجوابه ، ولـكننى كذّبت نفسى ... أيكون هو ؟ وما يحمله على أن يخفى عنى ؟ لقد كان معى أمس ، وأمس

الأول ؛ فلماذا لم يحدثني بشيء في ذلك ؟

وقلت للرافعي : « أو تعرف كاتبه ؟ » قال : « حاول أن تفكر ... لقد حاولتُ فلم أوفق ! » وكان حسبي هذه الكلمة لتزول كل شك في نفسي ، فما كذب عليّ الرافعي قبلها قط ... ! ولم أعرف إلا بعد أيام أنه هو ...

ورد المرحوم الأستاذ حسين والي ، وعاد الرافعي يرد ويتهكم ويسخر ، ويتحدّى المجمع اللغويّ كله أن يرشده إلى الأطوار الاجتماعية التي مرّت بها كلمة (حظيَ) حتى ساغ للمجمع من بعد أن يستعملها بمعنى (ظفر) في برقية الشكر إلى جلالة الملك ... وسكت المجمع ، وسكت الأستاذ حسين والي ، وظل الرافعي (الأديب الصغير) يكتب حتى جاءه الرجاء أن يسكت فسكت !

مقالات (الأديب الصغير) في نقد المجمع اللغوي هي آخر ما كتب الرافعي في النقد على أسلوبه وطريقته

* * *

ومما كتبه في تلك الفترة بحث طويل في البلاغة النبوية أنشأه إجابة لدعوة الهداية الإسلامية بالعراق ، لتنشره في ذكرى المولد النبوي . وقد لقي الرافعي من العناء في إنشاء هذا الفصل مالا أحسب غيره يقوى عليه . وحسبك أن تعلم أن الرافعي لم يتهيأ لكتابة هذا الفصل حتى قرأ صحيح البخاري كله قراءة دارس ، وأنفق في ذلك بضعة عشر يوماً ، وهو وقت قليل لا يتسع للقارئ العجل أن يقرأ فيه صحيح البخاري قراءة تلاوة ؛ فكيف به دارساً متمهلاً يقرأ ليتذوّق بلاغة الأسلوب ودقة المعنى ؟ ولكن ذلك ليس عجيباً من الرافعي الذي كان يقرأ كل يوم ثماني ساعات متوالية لا يمل ، فلا ينهض عن كرسيه حتى يوجعه قلبه !

وكتب الفصل بعد ذلك في ثلاثة أيام ، ثم دفعه إليّ لأكتبه بخطي ولم يمله عليّ ، فأنفقت في كتابته ثلاثة أيام أخرى

هذا الفصل يملأ نحو عشرين صفحة من صفحات الرسالة ، ويصلح أن يكون خاتمة لكتاب إعجاز القرآن — لو قدر لإعجاز القرآن أن يطبع طبعة جديدة — فإنه أشبه بموضوعه وفيه تمامه

وما فرغ الرافعي من كتابة هذا الفصل ، حتى أحس بحاجته إلى الراحة بعد ما بذل من جهد ، فأغلق دار كتبه وخرج إلى الشارع يشم الهواء ، ثم لم يكد يأتي المساء حتى جاءه البريد برسالة من جمعية الكشاف المسلم بالشام ، تطلب إليه أن يمدّ لها موضوعاً تنشره في صحيفتها لمناسبة المولد النبوي كذلك ... !

وضاقت أخلاق الرافعي ، فهم أن يأبى الرسالة ليفرغ لنفسه بضعة أيام للاستجمام ، ثم تحرّج ، فعادت إليه ابتسامته وهو يقول : « سأعملها قُرْبَى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو رمى بي هذا الجهد المتواصل إلى تهلكة ! » وعاد إلى مكتبه وهو متعب مكدود ... ثم أملى عليّ مقالة « حقيقة المسلم » التي أعاد نشره في الرسالة بعد ذلك وجمعه إلى وحي القلم

وكتب بضع مقالات أدبية في مجلة المقتطف

ثم دعته (الرسالة) ليكتب فصلاً عن الهجرة في العدد الممتاز الأول لسنة ١٣٥٣هـ ، فكان ذلك أول عهده بالكتابة فيها ، ثم اتصل بها حبله ، فظل يكتب لها كل أسبوع مقالاً أو قصة من قصصه الممتعة ، لا يفتر عن هذا الواجب إلا أن يمنعه المرض أو تشغله شاغلة من شواغل الحياة . ومات وهو يتهيأ لكتابة مقاله الأسبوعي لها ، ولكن القضاء عاجله فخلفه على مكتبه ورقة بيضاء ..!

(له بقية) محمد سعيد العريان

آراء حرة ، لعلها طلائع معركة !

بين العقاد والرافعى

للأستاذ سيد قطب

— ١ —

قرأت ما كتبه الأستاذ سعيد العريان تحت هذا العنوان فى الرسالة ، كما قرأت كل ما كتبه عن «مصطفى صادق الرافعى»

قرأته تحت تأثير عامل نفسى خاص ، ذلك أنه كان لى رأى فى المرحوم صادق الرافعى ، لعل فيه شيئاً من القسوة . ولما كنت على ثقة أن هذا الرأى لم يتدخل فى تكوينه عندى أى عامل خارجى ، وإنما كان نتيجة لعدم التجاوب بين آثاره الأدبية وبينى ، فقد كنت فى حاجة لأن أسمع من أصدقاء الرافعى ما عساه يخفف شدة هذا الحكم ، ويكشف لى عن بعض حياة الرجل التى اشتركت فى تكوين أدبه ، فلعل فيها تفسيراً وتبريراً لما كنت أراه فيه ، مما يستدعى قسوة الحكم ، وشدة النفور

وكنت أخذت ألمح من كتابات الأستاذ سعيد أنه صديق له ، مطلع على الكثير من أسرار حياته ، وعوامل إنتاجه ، فقلت : اتبعه فلعلك منقلب صديقاً للرافعى أو محايداً بالنسبة له !

والقصة بين الرافعى وبينى أننى قرأت له أول ما قرأت كتابه : « حديث القمر » فأحسست بالبغضاء له . أجل بالبغضاء ، فهى أصدق كلمة تعبر عن ذلك الإحساس الذى خالجنى إذ ذاك . ولم تكن ثارت بين العقاد وبينه إذ ذاك خصومة ، ولم أكن سمعت شيئاً عنه من العقاد أوسواه ، مما قد يكون سبباً فى هذه البغضاء . ولو خالجنى هذا الشعور بعد خصومته للعقاد لوجدت بعض التفسير ، فأنا لا أنكر أننى شديد الغيرة على هذا الرجل ، شديد التعصب له ، وذلك نتيجة فهم صحيح لأدبه واقتناع عميق بفطرته ، لا يؤثر فيه أن تجف العلاقات الشخصية بينى وبينه فى بعض الأحيان

ولقد كنت أكره نفسى بعد ذلك على مطالعة الرافعى ، فتزداد كراهية لهذا اللون من الأدب ، دون أن أجد التعليل . ذلك أننى كنت إلى هذا الوقت أديباً يتذوق فحسب ، لا ناقداً يستطيع التعليل ، ويصبر على التحليل

والرجل قد مات فما تحسن القسوة عليه ، ولكن لا يصح أن يكون الموت معطلاً للنقد ، ولهذا سأتحدث عنه كما لو كان حياً ، لأن الذى يعنينى منه هو إنتاجه الأدبى ، وما يبدو من نفسه خلال هذا الانتاج

كنت أشك فى « إنسانية » هذا الرجل ، قبل أن أشك فى قيمة أدبه ؛ وكنت أزعم لبعض إخوانى فى معرض المناقشة ، أنه خواء من « النفس » . وأن ذلك سبب كراهيتى له ، ولو أننى لم أره مرة واحدة ، ولم أجلس إليه

ولذلك كان همى أن أبحث فيما كتبه الأستاذ العريان عن حياته ، لا عن أدبه ؛ وكان يهمني أن أعثر فى ثنايا هذه الحياة على « نفس » وعلى « إنسانية »

ولهذا اغتبطت ، إن لم أقل دهشت ، حينما رأيت الأستاذ سعيدا يذكر للرافعى « حباً » ويحدثنا عن مظاهر هذا الحب وخطواته . ذلك أن خيالى المنبعث من قراءتى للرافعى لم يكن يطوع لى أن ألمح إمكان وجود هذه العاطفة فى حياته ؛ فالحب يتطلب قلباً ، وكنت أزعم أن ليس للرجل قلب ؛ والحب يقتضى « إنسانية » وكنت افتقدها فيه

إلى هذا الحد كان الحكم قاسياً على الرجل ، وإلى هذا الحد كان تشاؤمى فى تقديره

ولقد ظللت هكذا حتى استطعت أن أكون ناقداً ، لا يكتفى بالتذوق والاستحسان أو الاستهجان ، ولكن يعلل ما يحس ويحلله فماذا كانت النتيجة ؟

لقد عدلت حكمى قليلا ، وخفت حدته ، ولم أعد أستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه ، ولكن بقى الأساس سليما

كنت أنكر عليه « الانسانية » فأصبحت أنكر عليه « الطبع » ، وكنت لا أجد عنده « الأدب الفنى » ، فأصبحت لا أجد عنده « الأدب النفسى »

الرافعى أديب معجب ، فى أدبه طلاوة وقوة ، ولكنه بعدُ أدب الذهن لا أدب الطبع ؛ فيه اللمحات الذهنية الخاطفة ، واللفتات العقلية القوية ، التى تلوح للكثيرين أدباً مغرباً عميقاً

لذيذاً ، ولكن الذى ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية ، ولا طبيعة حية

لم يكن يعني الرجل فى أدبه الحقيقة الأزلية البسيطة ، بقدر ما يعنيه أن يصور الحقيقة الوقتية محكمة النسج ، رائعة المظهر ، تشبع الذهن ويستطيبها ، ولكنها لا تلمس القلب أو يسيغها

وكثيراً ما يختلط أدب الذهن وأدب الطبع ، إذا كان مع ذكاء وقوة . وما من شك أن الرافعي كان ذكيا قوى الذهن ، ولكنه كان مغلقاً من ناحية الطبع والأريحية

أترى كبير فرق بين حكم الأديب وحكم الناقد ؟

قد يكون ، ولكنهما قريبا المأخذ ، متحدا الاحساس .

* * *

وبعد فما كان يمكن أن يتفق العقاد والرافعي فى شيء ! فلكل منهما نهج لا يلتقى مع الآخر فى شيء

العقاد أديب الطبع القوى والفطرة السليمة ، والرافعي أديب الذهن الوضاء والذكاء اللماع

والعقاد متفتح النفس ريان القلب ، والرافعي مغلق من هذه الناحية متفتح العقل وحده للفتات والومضات

والطاقة العامة لكل منهما فى ناحيته متفاوتة بعد ذلك ، فطاقة العقاد النفسية أقوى من طاقة الرافعي الذهنية ، وعالم العقاد والحياة فى نظره أشمل وأرحب بكثير من العالم الذى يعيش فيه الرافعي ويبصر الدنيا على ضوئه

وإذا لم تكن كلمة اليوم تتسع لضرب الأمثال ، فستتسع الكلمات المقبلة للمثال بعد المثال

* * *

إنما يعنيني اليوم ما كتبه الأستاذ سعيد العريان !

ففيما كتبه وهو أخص أصدقاء الرافعي مصداق لكثير مما تخيلته فيه ؛ وفيما كتبه عن العقاد أشياء كثيرة تستحق المراجعة ؛ وسأبين هذا وذلك

فى إباء الرافعي أن يشتري كتاب « وحى الأربعين » مع حاجته لنقده مايشير إلى ضيق الأفق النفسي الذى كان يعيش فيه ، وتصور للون من الحقد الصغير قلما يعيش فى « نفس » رحبة

الجوانب متفتحة للحياة مستعدة لقبول صورها المختلفة المتعاقبة ؛ وهذا ما كنت أتصوره من أدبه

وفى البواعث التى تدعوه لنقد وحى الأربعين كما صورها صديقه ما يصور نظرة الرجل إلى النقد والأدب والغاية منهما ، ومدى نظرته العامة للحياة ، واتساع مداها فى نفسه ، وهو لا يبعد كثيراً عن المدى الذى تصورته له

وفى اختيار الظروف السياسية للنكاية ، دون أن يكون وراءها عقيدة ما ، إلا شفاء الحزازات ، كالمقال الذى كتبه فى الكوكب ، وكلمة وكليمة بالرسالة ما يؤيد خلو الرجل من « العقيدة » وهى اللازمة «للطبع» المفقود فى الرافعي ، فدوافعه فى الأدب لم تكن دوافع العقيدة والانطباع ، بمقدار ما هى وليدة الفكر والتوليد والماحكات

ويخطئ من يعتقد أن ما أقوله هنا مقصود به شخص الفقيد ولكنه شيء لابد منه لتقدير أدبه على حقيقته

* * *

وفيما كتبه الأستاذ سعيد عن العقاد كثير من الجهل بطبيعة العقاد ودوافعه فى الحياة ، وعوامل الكتابة فى نفسه

والأستاذ معذور فى هذا لأنه لم يختلط بالعقاد أولاً ، ولأن نفسه لم تتفتح لأدب العقاد فيفهمه ثانياً

ولقد كان يعيش فى بيئة الرافعي وجوه ، ويلوح لى من كتابته أن ذلك يلائم جوه الخاص ، ويناسب بيئته الروحية

وأول ما يخطئ فيه اعتقاده أن طعن العقاد على الرافعي من ناحيته الوطنية ، فى رده على نقد وحى الأربعين ، كان حيلة أملتها البراعة السياسية

ووجه الخطأ هو تصور العقاد كالرافعي فى هذه الخلة النفسية وفى وسائل الصراع ، واستعمال الحيل الذهنية ، والمناسبات العارضة لكسب القضية !

والذين يفهمون العقاد لا يعرفون فيه هذه الصفة . ولكنهم يعرفون طبيعة قوية مخلصة ، لا تتذرع بالحيل الذهنية ، والبراعة السياسية العارضة ، ولكنها تتذرع بنفوذ الادراك ، وعمق الاحساس ، وشمول الشعور . فاذا اتهم العقاد الرافعي بأن نقده

لوحى الأربعين منشؤه ضغينة شخصية ، وإيحاء سياسى كما فعل ، فإنما هو ممتقد هذا فى صميم نفسه ، وما يعنيه ما ينال الرافعى من الناحية السياسية ، قدر ما يعنيه « كشفه » من الناحية النفسية ، وتصوير البواعث التى تهيجه لهذا النقد اللاذع

وما عن مبدأ خلق يصدر العقاد فى هذا ، ولكن عن طبع قوى يخلق المبادئ الخلقية ، ويختار منها ما يناسبه ، ويرفض مالا يرتاح إليه ، ولو تواضع الناس عليه !

ويخطئ الأستاذ سعيد كذلك فى تسمية ما كتبه العقاد فى رده شتما وسباً للرافعى ، كما أخطأ فى تسمية ما كتبه عن مخلوف سباباً وشتائم

ويبدو أننا فى حاجة لتحديد معنى السب والشتم فى لغة الأدب ، بعيداً عن لغة القانون

فى حاجة إلى بحث هذا الموضوع على ضوء من علم النفس وعلم الأخلاق وتطبيقهما على العالم الأدبى ، فطالما سمعت وصف الكلام بهذين الوصفين ، مستمداً هذا الوصف من ألفاظ الكلام دون بحث أسبابه ، والحالة التى يعالجها

وطبيعى أن الحكم على الكلام وحده ، مجرداً عن بواعثه وملابساته حكم شكلى ، إن أرضى ذوى المواهب الذهنية ، فلن يرضى ذوى المواهب النفسية ؛ وإن أرضى العقل فلن يرضى القلب

وفى هذا عودة إلى الفوارق الأساسية بين مدرسة العقاد ومدرسة الرافعى !

كتب الرافعى عن وحى الأربعين كلاماً يعترف الأستاذ ببواعثه الأصلية ، والعقاد يعرف هذا ، ويعتقد فى صفات الرجل النفسية ، وفى نصيبه من الطبع السليم والفهم المتفتح أشد مما أعتقد أنا . ودواعيه لذلك الاعتقاد كثيرة ومفهومة ، فإذا كتب يصور الرافعى كما هو فى خيال العقاد ، وكما هو فى الحقيقة ، فليس الذنب ذنب العقاد فى قسوته ، فإنما هو يصور حقيقة ، أو على الأقل ما يعتقد هو أنه حقيقة

وإذا كتب عن « مخلوف » يتهكم به ، ويشنع بسوء فهمه للأدب ، فبعث ذلك عظم الفرق بين طاقة العقاد وطاقة مخلوف ، والحنق على أن يكون مثل هذا ناقداً لمثل ذاك

والحق أن هذا مما تضيق به الصدور . وقد كنت أنا لا العقاد مستعداً للثورة والحنق ، لو تناول بعض هؤلاء أدبى بمثل هذا الضيق فى الفهم ، والاستغلاق فى الشعور ، أو بمثل التلاعبات الذهنية ، واللفات البهلوانية ، التى تناولا بها أدب العقاد

ثم لا بد من عتب على الأستاذ سعيد فى أن يسمح لصداقته للرافعى أن تعدو على التقدير الصحيح للعقاد ، فيعرض بلقب « أمير الشعراء » الذى « ينحله » الدكتور طه حسين بك للعقاد « تملقاً » للشعب ونزولا على هواه

وما أريد أن أبحث عن بواعث الدكتور طه لإطلاق هذا اللقب ، فصلتى بالدكتور لا تزال حتى اليوم لاتسمح لى بتفسير حقيقة بواعثه . والحكم على النيات عمل عسير لا يصح الاستخفاف به ، ولكننى أتحدث عن مظهر هذا التصرف لا عن باعثه . ورأيى أن هذا اللقب غير لائق بالعقاد ، لأن المسافة بينه وبين شعراء العربية فى هذا العصر أوسع من المسافة بين السوقة والأمراء

وإننى لأكررها مرة أخرى ، وأعنيها فى معرض الحقائق الواقعة لا معرض الجدل والمناقشة

قد يكون هناك كتاب يتقاربون مع العقاد ، ولكن ليس هناك شعراء فى لغة العرب يتقاربون مع العقاد

ولقد كنت هممت بإصدار بحث عن الشعراء المعاصرين ، ونظرت فى أدب جميع الشعراء الأحياء — وأنا من بينهم — ولكن عاقنى عن إصداره أن لم أجد نقط اتصال بين العقاد الذى سأكتب عنه أولاً ، وبين جميع الآخرين من الشعراء

الفرق هائل جداً ، وأكبر مما يتصوره الأكثرون ، بين طاقة هذا الشاعر والطاقات الأخرى

وسيغضب لقولتى هذه كثير من أصدقائى الشعراء المعاصرين ، ولكنهم ليسوا أكرم على من نفسى ، وأنا حسن الظن بشعرى ، — وليعذرنى أنصار مبدأ التواضع — ولكننى حين أضمه أمام شعر العقاد يتلاشى ، وتحتبس نفسى عن التعبير حتى يسكن صدى شعر العقاد فى نفسى !

هذه كلمة حق وعقيدة . وسأتولى شرح الأمثلة التى تثبت كل ما أسلفته من آراء

(حلوان) سيد قطب

الرئيس الوزير إدوار هريو
رجل الأدب

بمناسبة زيارته لمصر

للأستاذ عبد العزيز عزت

هناك ثالوث من المعارف لا تنفصم أجزاؤه، إذا تحقق فى رجل كانت له صفة الإنسانية الخالدة: هذا الثالوث هو الفلسفة والسياسة والأدب؛ ذلك لأن الفلسفة تصقل الفكر إلى درجة يرتفع بها عن اضطراب مفردات الوجود الجزئية، إلى نوع من التجريد العقلى تنفذ به القريحة إلى صميم الأصول التى تحدد الأشياء فى جوهرها الدائم، واقعية كانت أم فرضية. والسياسة ضرب من المعرفة أخطأ مكيافللى فى تعريفها حين قال: «إنها وسيلة للكذب والخداع»؛ لأنها عند المفكر الأول للبشرية أفلاطون الالهى — إذ استعرنا لغة الفارابى —: هى وسيلة لتحقيق منطق العالم فى مجال عالم الاجتماع الإنسانى، فيسوده نوع من الانسجام يوجب استقرار النظام فيه؛ وتتحقق فيه «ذروة» الكمال فتستقيم حياة الإنسان. لهذا كانت السياسة هى بيت القصيد فى فلسفة أفلاطون، وكانت «المدينة» كنظام اجتماعى — إذا استعرنا لغة فستيل دى كولانج — هى المحور الأساسى الذى تدور حوله فلسفات الإغريق فى العهد القديم. والأدب، يكفى لتعريفه أن يلقى القارئ نظرة إلى جدول موضوعاته فى مؤخر كتاب العلامة الكبير لانسون عن «الأدب الفرنسى» ليرى انفهاق نواحيه والتى فى صلبها الفلسفة والسياسة؛ وذلك لأن الأديب يجب أن يعيش لتحقيق فكرة معينة فى مجتمع معين، وتأكيد مذهب ونزعة واضحة فى الفكر لا يحيد عن دعمها مرة واحدة فى بلد من البلاد، وإلا كان قلمه رخيصاً لا قيمة لما يسطره فى أسواق الأدب الرفيع؛ لأن الأدب إذا قام على العجز فى الإبصار والإدراك بمعنى أن يذهب الأديب إلى ترديد «الماضى» دون أن تدفع به عين التفكير فى حركتها إلى الأمام، كان أدبه مستذلاً تسوده النزعة التاريخية، لا يبصر قارئوه أبعد من أنوفهم؛ وإذا نظروا خلال ذلك الأدب لن يروا أمامهم إلا سراباً. وثانياً ينتاب هذا الأدب العجز فى الإدراك بمعنى انعدام الخلق الوطنى فيه، بأن يعمد واضعوه إلى تقليد الأجانب فى أدبهم معتمدين فى ذلك على الترجمة والاقتباس، فيكون بذلك أدبا «قردياً» كله المحاكاة والتنافر مع أول إحساسات أهل الوطن، لأن الأدب كأساس نتاج فكرى يتعلق بالمشاعر والعواطف، فهو خاص له لون معين يشتق من طبائع الأمم ومميزاتها. (إقرأ كتاب فكتور هوجو وعنوانه «الأدب والفلسفة» وأيضاً ما كتبته مدام دى ستايل عن الأدب والسياسة)

فالفلسفة، والسياسة، والأدب، تتميز بعضها عن بعض ولكنها لا تنفصل، «كالمثلث» إذا ضاع أحد أضلاعه، انعدمت وحدة الوجود الهندسى فيه. كذلك «الرجل» بالمعنى الأدبى هو ذلك الهيكل الفكرى الذى تحقق فيه المعارف الثلاث. وليس فى عصرنا هذا رجل يتمثل فى شخصه ثالوث هذه المعارف الثلاث وانسجامها كالرئيس هريو، فهو بحق رجل الفلسفة والسياسة والأدب

أما عن فلسفته: فمذهب يسمى إليها عند مفكر مصرى هو فيلون الأسكندري الذى جعل منه موضوعاً لكتاب طريف يمثله فى حياته الأولى. وفى دراسته هذا الفيلسوف أكبر دليل على تحقق صفة الرجولة والإنسانية فيه، لأن فيلون يوحد فى شخصه وفى انسجام تام عناصر فكرية مختلفة النزعات، فهو يهودى النشأة، مصري المشاعر، يونانى الثقافة. هو عالَم مستقل بذاته يتوسط بين العالم اليونانى القديم، وبين عالم التفكير فى القرون الوسطى. ففى دراسته إلمام بما تقدم وما تأخر من

المعارف فى تطور التفكير عند بنى الإنسان حتى ظهور العهد الحديث . وفى دراسته أيضاً توفيق بين الإلهام والعقل وبين عالم الشهادة وعالم القداسة ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقلية اليونانية والعقلية الشرقية . وبفضله أصبحت الأسكندرية العامرة ، منارة العلم ومنبع النور فى الإيمان والتجريد الفكرى . فاهتمام الرئيس هريو بفيلسوف كهذا يدل على مبلغ ما هو عليه من العلم الغزير وسعة الاطلاع ، وخاصة « توحيد ما اختلف » مما ساعده وأهله ليكون رئيساً لمجلس النواب الفرنسى يقيم الانسجام بين ما تباين من نزعات الأحزاب ، وأهواء السياسة ، وجموح مناقشاتها المسيرة ، لتسير فى هدوء إلى سبيل الحق الذى يعلو على شهوات التخصيص الضيق فى أصول الحكم

وهو فى كتابه هذا يعرض أولاً لمقارنة يهودية التوراة فى عهد فلسطين بالمتقدات اليونانية ، ثم مقارنة يهودية الأسكندرية — وكفرع — بنفس تلك المتقدات الإغريقية ؛ وفى موضع ثالث يتطرق إلى تحليل منهج فيلون وآرائه الثابتة فى مجال الإلهيات ، فيعرض لنظرية التأليه عنده ، وتحديد فهمه لطبيعة الأفكار والأعداد ، ويثبت تأثره بفلسفة الفيثاغوريين ؛ ثم ينتقل بالكلام أو شرح جوهر النفس وتشعب نشاطها ، وعلى الخصوص وصف حياتها « القابلة » التى تتمثل فى انفعالاتها وشهواتها الثائرة المريضة ، ثم يعرض إلى مذهبه فى الأخلاق وطبائع الفضائل وأصول التخلق فى الحياة وما بعد الحياة ، ثم يشرح أخيراً آراءه فى السياسة ، فينقد مبادئ الاستبداد والتزعم الجامح

وأما عن أدبه : فهو أدب بنى على النبل والورع ؛ لم يقصد به فرض وهم فى الزعامة على الأدب فى فرنسا ، لأنه يعرف أن الزعامة تاج يكلل به الناس رؤوس من يتوسمون فيهم أهلية هذه الزعامة ، فهى « تسمى » إليهم ، دون أن تفرض على الناس فرضاً . وهذه الزعامة لم تقم يوماً ما على الغرور الفكرى ، ولا على مهاجمة الناس فى معتقداتهم وأديانهم ؛ ولم يكن التجديد فى الأدب يوماً هو الانسلاخ عن تراث الآباء والأجداد والذهاب لما يمجه ذوق البلاد من التواء وغموض فى التصور عند الفرنجة ، وإنما هو الاقرار بفضل من تقدم من السلف الصالح ، وفهم الحاضر

الفكرى فهما يكفل الانتاج العقلى فى المستقبل القريب . فبهذا تحفظ روح الأمة ومشاعرها ، صافية من غير امتزاج ، وتسير إلى الأمام فى غير ما ترقيع ولا ابتذال

لهذا ذهب الرئيس هريو إلى أدب قومه ، واختار من بين فتراته حقبة من الزمان هى الحد الفاصل بين نوعين فى الأدب الفرنسى : نزعة المحافظة على القديم التى تتمثل فى أدب القرن السابع عشر الميلادى عند راسين وملير وبوالو ، ونزعة « الإصلاح » فيه عند كتاب القرن الثامن عشر مثل روسو وفلتير ومنسكيو . هذه النزعة الثانية نزعة « حربية » لم تنسجم وطبيعة التفكير الأدبى ، فقضت على الأدب « الرفيع » بثورتها ؛ لأن مجاله أصبح مهزلة لتراشق خطباء الثورة بما يمجه كل ذوق أدبى سليم ، ويأباه كل عرف فى التصور والتأدب . وفضت عاصفة السياسة على الاستقرار الأدبى ، وحرمته الخضوع لمذهب واحد معين يمثل مشاعر أمة واحدة معينة ، له لونه وصبغته الخاصة ، وأصبحت أقلام الأدباء كسهم الريح فى أعلى المنازل تعصف به الزوابع فى كل اتجاه ، فهى تباع وتشترى بيع الأنقاض فى أسواق السلع البائتة ، تدور وتتذبذب فى سائر الأحزاب ، دون استقرار محدود على مبدأ واحد ثابت لا يتغير

هذه الفترة التى ذهب إليها الرئيس هريو هى مبدأ القرن التاسع عشر ، إذ هدأت عاصفة الثورة الفرنسية بأدبها « الوهمى » وإذ ابتدأ ظهور المذهب الرومانتيكى أى « التخصيص فى الأدب » (بمعنى أن يكون للأديب مسحته الخاصة الغالبة وحريته الكاملة فى تصور وتسطير ما يشاء ويهوى ، دون أن يخضع مثلاً لقانون الوحدات الثلاث الذى نجده مثلاً عند راسين ، والذى يتأثر هو فيه بتعاليم اليونان ، وخاصة أصول « التراجيدى » عند أرسطو وسوفكليس وأوربيدس فى العهد اليونانى القديم) ، بفضل ما كتبه شاتوبريان ، وعلى الخصوص الشاعر الخالد فكتور هوجو فى « مقدمته » لرواية كرمويل . واختار الرئيس هريو من أدباء هذه الفترة مدام دي روكاميه ، كموضوع لرسالته الكبيرة لدكتوراه الدولة ، ومدام دى ستايل ، كموضوع لرسالته الصغيرة

كانت الرسالة الأولى من الضخامة بحيث طبعت فى جزئين ،

واضطر الرئيس « هريو » أن يعيد طبعها « مخفضة » عند « بايو » لتكون فى متناول كل قارئ مثقف ، بعد أن حذف كثيراً من « الهوامش » التى ما كانت فى واقع الأمر إلا « زينة » فى رسائل مدرسة السربون ، وغرضه الأول فيها لم يقتصر على دراسة هذه الأدبية وتحليل شخصيتها فى ذاتها ، بل كان مع ذلك دراسة الروح العامة للأدب فى ذلك الزمان ، وحل المناسبات الاجتماعية التى ساهمت فى نضوجها الفكرى . وليس أدل على صحة كلامنا من عنوان الرسالة نفسها وهو : « السيدة ركامييه وأصدقاؤها » . والغرض الثانى إثبات أثر مدينة ليون التى ولدت فيها هذه السيدة فى تكوينها الأدبى ، والحياة الأدبية لهذه المدينة خلال ما كتبته هى عنها فى زياراتها المتعددة لها فى ذلك العهد . والغرض الثالث هو شرح أهمية اتصالهـا بمؤسس مذهب الرومانتيزم شاتوبريان وما كان له من الأثر فى توجيه تفكيرها الأدبى والسياسى

والرســالة الثانية ، تعرض للصداقة المتينة التى كانت بين السيدتين ركامييه ، ودى ستايل ، واتحادهما فى نزعة العداء ضد مبادئ نابليون بونابارت . فهى رسالة تبحث أيضاً فى أدب نفس ذلك العهد وفى نفس الجو الأدبى ؛ غير أنها تمتاز بكونها شرحا لبعض مخطوط لم يطبع حتى ذلك التاريخ ، يوجد فى المكتبة الأهلية بباريس فى نحو ٢٩٧ صفحة بعنوان « منتخبات لآراء سياسية » فيها تعرض مدام دى ستايل عن « حلمها » السياسى وهو إمكان محو مبادئ الدستور القائم إبان ذلك ، وإحلال جمهورية تثبت على أصول العقل . ففى القسم الأول من هذه « المنتخبات » تشرح مبادئ الثورة والشروط اللازمة لتحقيق مبادئها . وفى الجزء الثانى تعرض للأصول العامة العقلية لإمكان تحقيق الجمهورية . وفى القسم الأخير تبسط أهمية أصول العقل فى تغيير الحالة العامة فى فرنسا فى ذلك الحين . فهى بهذا المخطوط تكتب على طريقة أفلاطون فى « جمهوريته » فترسم فرضاً سياسياً وإن كان يسوده الخيال ، إلا أنه مع ذلك يحدد لنا نزعتها الخاصة فى الحكم ، وكيف أنها تميل فى نزعتها إلى نوع معين من الديمقراطية لا تبنى مباشرة على مبادئ الثورة الفرنسية بل على أصول التفكير والعقل الخالص

أما عن سياسته : فنقول إن السياسيين فى أغلب أمم الأرض فى زماننا هذا هم أكثر الناس جهلا بالسياسة وأصولها ، وهذا الجهل راجع فى نظرى إلى أن السياسة أصبحت مجالاً للدجل والتهريج لا يطرق بابها إلا أصحاب الفراغ والجدة فى كل شيء . ومن ادعى من رجالها العلم والفهم فى مجالها ، رجع فى علمه وفهمه هذا إلى مفكرى العصر الحديث ، أولئك الذين يشرعون باسم المادة والاقتصاد ، مع أن السياسة عند أهلها من آباء التفكير وخاصة أفلاطون الإلهى ، تقوم على فهم طبيعة الانسان الخاصة وتخلفه . لهذا كانت السياسة هى بيت القصيد فى الفلسفات القديمة وكانت تتضمن دراسة هـذا العلم ، ودراسة الآداب ، وعلى الخصوص دراسة الأخلاق ؛ وكان لا يمكن أن يسمى الرجل « سياسياً » إلا إذا بلغ الخمسين من عمره ، بعد أن عراك الحياة ووقف نظرياً وعملياً على طبائع الناس وتضارب ميولهم ، وتباين تخلقاتهم ، وأضاف إلى علمه بجوار منطق العقل ، منطق الحياة . أما اليوم فهى لا تلم إلا « القش » « والرماد » فى كل هيئة اجتماعية من الذين يؤمنون بما يوحى إليهم رجل كمكيافلى أن السياسة هى « مكر وإثم وخداع » ، عوضاً من أن تكون « فلسفة ، وأدبا ، وأخلاقا »

لهذا كان الرئيس هريوليس من المحدثين فى السياسة ، لأنه يسير وتعاليم اليونان القدماء ، فهو لم يتعجل أن يطرق بابهـا ، فيصيبه ما يصيب أهلها الآن من ابتسامات تقديرية لو فهمها الرجال

منهم لاحمرت لهـا وجوههم . فبعد أن مهـد لنفسه النضوج الفكرى بثقافة جامعة واقية فى الفلسفة والأدب ، طرق مجال الخدمة الاجتماعية عملياً فى عمادة مدينة ليون ، فأثبت ماهو أهل له من العلم ، وإحكام الادارة ، وتصريف أمور الحياة بين الناس ، حتى إذا كان فى نحو الأربعين من عمره انتخب مباشرة عضواً فى مجلس الشيوخ الفرنسى عن منطقة الرون ، متخطياً مجلس النواب ، فكان أصغر عضو فى ذلك المجلس عام ١٩١٢ ؛ ثم تطرق بعد ذلك إلى منصب الوزارة ، ثم إلى رياسة الوزراء ، ثم إلى رياسة النواب ، فكان فى كل مرحلة منها « الفيلسوف العادل » ، « الموحد لا اختلاف » . ولعب بجوار ذلك دوراً لا يستهان به فى تنظيم الحياة الداخلية لأمته إبان الحرب العظمى عندما ولاه الرئيس الوزير بريان وزارة الأشغال والمواصلات والمؤونة ؛ ويمكن أن يتصور خطر هذا المنصب ، والقتال قائم على قدم وساق

وباعتباره « عمدة » لمدينة ليون ، يكفى هذا أن يرفع نظر المصريين إليه ، لأن لهم فيها ذكريات تتعلق بتاريخهم فى العهد الحديث . فالرجل الذى قاد الجنود المصرية فى ساحة الوغى ، وأثبت للعالم سمو الروح الحربية عند المصريين ، ووضع أسس الامبراطورية المصرية ، هو القائد سيف Sève أو سليمان باشا الفرنساوى الذى ترك وطنه فى مدينة « ليون » ، بعد انهزام نابليون ، ليعمل لحساب مؤسس الأسرة العلوية الكريمة ؛ فكان عند حسن ظن محمد على باشا فيه ؛ فحقق ما رسم له خالق مصر الحديثة ومشيد عظمتها . كذلك ساهمت ليون بعلمائها الأعلام وعلى الخصوص الأستاذ لامبير فى خلق مدرسة للفكر فى مصر تتمثل فى ذلك الشباب النابه الذى ورد شرعة العلم من سنين فى هذه المدينة ، والذين أصبحوا الآن من قادة الفكر فى مصر ، فى الفلسفة الإسلامية ، وفى عمادة الحقوق ، وفى بطولة المحاكم المختلطة ، وفى زعامة المحاماة والثقافة . والجميل فى أمر هذه المدرسة ، أن أهلها يعملون على إعلاء كلمة الوطن فى نبل وهدوء وورع ، دون أن يتخذوا من العلم سبيلا وضيعاً لمهاجمة معتقدات أهل البلاد ودينها ، وتصورها فى حفلات عامة كقبائل المتوحشين لا هم لساكنيها إلا التفكير فى الأكل والشرب كما يفعل هـذا الكثير من متخرجى السربون وجامعة باريس ، وهو ما لا يليق بشباب يدعى الثقافة والفهم ، ومكتوب على جواز سفره أنه « مصرى » !؟

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

- ١٦ -

خرجت من منزل ليلى نشوان ، نشوان إلى حد الجنون . والمرء فى العراق لا يكون إلا فى حالين اثنين : حال تحدثه فيه النفس بالغرق فى دجلة من الفرح ، وحال تحدثه فيه النفس بالغرق فى دجلة من الغيظ . فالمرء فى العراق إما أن يكون سعيداً كل السعادة ، وإما أن يكون شقياً كل الشقاء

وكذلك حال ليلاى ، فهى قد ترقّ وتلطُف فأدخل دارها بُعَيد الغروب ولا أخرج إلا قُبَيل الشروق ؛ وقد تقسو وتعنف فتطردنى من دارها بلا ترفق ولا إشفاق

خرجت من منزل ليلى نشوان ، فقد رضيتُ عنها ورضيتْ عنى ، ولكن الحادث الأخير ترك فى القلب عقابيل ، فأخذت أحترس ، وهل يتفق الحب والاحتراس ؟

نعم يتفق الحب والاحتراس ، ولكن يضيع النعيم . فالمحب المحترس يثق بنفسه ، ولكنه لا يثق بمن يحب ... وليلى بدأت تمد ذنوبى ولكن من أى تاريخ ؟ منذ اليوم الذي اطمأنت فيه إلى عودة العافية !

فمن أنا فى دنياى ؟ من أنا فى دنياى ؟

لقد كنت أرجو أن تعمى ليلى عن عيوبى ، ولكن هكذا كنت فى حياتى ، فما أذكر أبداً أنى عانيت الظلم إلا على أيدى ناس أحببتهم واستقتلت فى الدفاع عنهم . كنت كالسيف يلقيه صاحبه بعد أن يفله القتال . كنت كالغصن المثمر يؤخذ للوقود بعد انتهاب ما يحمل من ثمرات . كنت وكنت ، فما أشقانى وما أعظم بلائى !

كذلك دار رأسى وأنا ماض إلى قطار البصرة . وما أدرى كيف صاغ الله عقلى على هذه الصورة ، فعقلى لا يغفو أبداً ؛ وهو دائب على الدرس والتحليل ، وليس من الزهو أن أذكر أن أعظم ما يساورنى من المعضلات الفلسفية أهتدى إلى حله فى أحلامى ،

والمسيو ماسينيون يذكر ذلك ، فقد كانت لي معه مواقف يوم كنت تلميذه في باريس

أمسيت أحقد على ليلى ، ولكن لا بأس ، فقد وثقت بي ، واطمأنت إلى ، فأخذت تصادق من أصادق ، وتعادي من أعادي ؛ وليس ذلك بالقليل ، فما الذي يمنع من أن أحتمل مايثور في صدرها أحياناً من براكين ؟

أليست عراقية ؟

بلى ، هي عراقية

وأنا رأيت الأعاجيب في العراق

فمنذ ليال أويت إلى فراشي في منتصف الليل والسماء صاحية ، ثم انتبهت على الروع والفزع ، فقد كان النزل ترج سقوفه وحيطانه بعنف ، فأوقدت المصباح وأنا خائف أترقب ، ثم عرفت بعد التأمل أن الصحو أعقبه غيم ومطر وصواعق

ولما خرجت في الصباح رأيت الشمس آست ما جرح الليل ، وكأن لم يكن شيء !

ذلك هو العراق

وكذلك تكون ليلاى في العراق

فما الذي يمنع من الصبر على دلالها أو أذاها شهراً أو شهرين حتى تمل هي من النضال ؟

إن بعض المرضى يحملهم أن يثوروا على الأطباء . ومن واجب الطبيب أن يرحب بمثل هذه الثورة ، لأنها بشير العافية . وستذكر ليلى أني كنت من الصابرين ، وأني منحتها عطف الحب ورفق الطبيب ؛ ولن أفارق بغداد قبل أن تبذل في سبيلي غاليات المدامع ، إن كتب الله أن تأخذ عن طبيبها أدب الصدق والوفاء

لن أنساك يا ليلى فقد عاديتُ فيك وعوديت

وأحمل في ليلى لقوم ضغينةً وتُحمل في ليلى عليَّ الضغائنُ

ولكن هل تفهمين أو تعقلين ؟

أما والله لو تجدين وجدي جححتِ إليَّ خالعة العذار

* * *

كانت هذه الخواطر السود تتناوش قلبي وأنا في طريق إلى المحطة ، ثم تفجر الحنان في قلبي على غير انتظار ، فقد سمعت المذياع يرسل هذه التغريدة رحمة للقلوب

« ليه تلاوعيني ، وانت نور عيني »

وهي من تغاريد أم كلثوم ، وكأني أسمعها أول مرة ، فرجعت على نفسي باللوم وقلت : كذلك يكون العقاب ! وهممت بالرجوع إلى ليلى لأقول :

« ليه تلاوعيني ، وانت نور عيني »

ولكن تذكرت أن الوقت لا يتسع للقيام بواجبين في وقت واحد : عتاب ليلى وملاقاة صاحبة العينين التي أرجو أن أدفع بوجهها الشرق وحشة الطريق وظلام الليل

ودار ذهني يحاور ويجادل :

— كيف تشرك بليلى هذا الإشراك ؟

— أنا أشرك بليلى ؟ معاذ الحب !

والحق أني أشرك بهوى ليلى ، ولكن هذا الشرك هو طريق إلى التوحيد . أنا أحب جميع الملاح لأهيّئ قلبي لحب ليلى . أحب من أجلها كل ما في الوجود ، وأصفح من أجلها عن جميع الذنوب

وصاحبة العينين ستسألني عن ليلى ؛ والسؤال عن ليلى ، من ذلك اللسان الألثغ الملجلج هو في ذاته زلفى إلى ليلى . وأنا أيضاً رجل مكروب تضيق به دنياه ، والضلال في هوى العيون قد ينسيني كروبي؛ وليلى يسرها أن أعيش أطيب العيش ، وهي تعرف أني لا أحيا بغير الحب والنسيم ، شفاها الله وشفاني

طوّفت بجميع أرجاء المحطة لأرى صاحبة العينين ، وما رأيت صاحبة العينين

فتشت جميع دواوين القطار لأرى صاحبة العينين ، وما رأيت صاحبة العينين

ورأى حيرتي ناظر المحطة فقال في تلطف : ضاع منك شيء ؟

فقلت : لا ، ما ضاع مني شيء ، وإنما أخاف وحشة الطريق وظلام الليل

فتعجب الرجل من هذا الجواب المضحك وانصرف

فهل رأى الناس حالاً مثل حالي ؟ هل رأوا من قبلي رجلاً يرحّب بالشرك فيعزّ عليه الشرك ؟

إن الحب يريد أن أذهب إلى البصرة وليس في قلبي غير ليلاى

* * *

وكان لى فى القطار رفيقان : أولهما الدكتور عبد الحميد القصاب ، وهو طبيب يمثل عذوبة الروح ، وصفاء القلب ، وهو من خيرة الذين عرفتهم فى العراق ، وثانيهما السيد ظالم وهو صحفى أديب لا تعرف في صحبته ضجر السفر ولا طول الطريق ، وليس فيه غير عيب واحد هو التجنى على الموسيقار محمد عبد الوهاب والفناء المطلق في أغانى أم كلثوم

جلس حضرته يدندن ، ولكن كيف ؟ بعد أن لبس عباءة فضفاضة جعلته نسخة من سلطان زنجبار

وأمسى ديواننا فى القطار قريب الشبه بالغرفة التى يجلس فيها أحمد رامى بدار الكتب المصرية ، الغرفة التى ترق فيها الدندنة وتشتبك حتى لتحسبها خيوط المنكبوت ، الغرفة الجذابة التى يحرم دخولها على أحد الزمن ثم يحل ويباح لمن يسألون عن رباعيات الخيام أو تأملات لامرتين

وظالم ورامى يشتركان فى صفات كثيرة أهمها تشويه الوجه ورخامة الصوت

- ياسيد ظالم !
— نعم ، ياسيدنا البيه !
— هلم بنا إلى العشاء
— عشاء إيه ، انت عاوز تخرب جيبك ؟
— أخرب جيبي ؟ وكيف ؟
— العشاء فى القطار غال جداً

واعترض الدكتور القصاب فقال : أما يسرك أن تصنع مثل الذى كنت تصنع فى قطار ليون ؟

— لا بأس إذاً تنتظر إلى أن يقف القطار فى المحطة المقبلة

وفى المحطة تقدمت فلاحة في خمار أسود ومعها ماعون هائل من اللبن الرائب ، فاشتريناه بعشرة فلوس ، وتقدم طفل ، وفى يده رغيفان ؛ فساومناه ، فاشتط فى الثمن ، فقاومناه ، فقبض على الرغيفين بأسنانه والقطار يمشى ، فرميناه بعشرة فلوس ونزعنا من أسنانه الرغيفين ! !

ما أظرف العبث فى قطار البصرة وما أحلاه ؟

وفهم الرفيقان أنى ميت من الجوع فلم يأخذا من الطعام غير لقمتين

وما كاد الطعام يستقر فى جوفى حتى هجم النوم هجوماً لم أشهد مثله منذ أعوام طوال ، فعرفت أن ذلك اللبن الرائب أراح أعصابى ، وهى أعصاب أرهقها النضال وسهر الليالى

انكأت على المرفقة ونمت وأنا جالس ، نوماً شهياً جداً ، ولم يعكر نومى غير الجدل السياسى الذى أثاره الدكتور القصاب مع رفيق غاب عنى اسمه ، وكانا يتحدثان عن المعارك الحزبية فى دمشق

وفى تلك النفوة الشهية صاح صديق :

دكتور ، دكتور ، أنظر ، أنظر ، أنظر

فنظرت من نافذة القطار فاذا صاحبة العينين فى سيارة مغروزة فى الوحل

وهممت بالنزول من القطار لأرى هذه المرأة كيف أنفع فى الشدائد !

ثم تذكرت أننى أيضاً فى سيارة مغروزة فى الشوك ، هى سيارة الحب

ونظرت إلىّ المرأة نظرة الملهوف
ونظرت إليها نظرة الغريق
نظرتْ ونظرتُ ، ثم نظرتْ ونظرتُ
وأنقذ القطار الموقف فسار لا يلوى على شيء
— دكتور ، دكتور
— نعم ، نعم
— أنظر ، أنظر

ففتحت عينىّ فاذا الشمس أشرقت وإذا سرب من الظباء الوحشية يجول فى البيداء ، وهى أول مرة أرى فيها الظباء الوحشية ذات الأجياد والعيون

أتكون هذه الظباء الوحشية هى البشير بالاقتراب من الظباء الأنسية ؟

هو ذلك ، فلم يبق بيننا وبين الأنس بوجوه أهل البصرة غير ساعتين

* * *

الله أكبر ولله الحمد !

هذه هى البصرة ، هذه هى البصرة ، وما تخوننى عيناى

هذا هو البلد الطيب ، بلد المبرد ، المبرد صاحب الكامل فى اللغة والأدب والنحو والتصريف

وبفضل الكامل للمبرد وصلت إلى منصب الأستاذية فى الأدب العربي ؛ وبفضل الكامل للمبرد صحبت الشيخ سيد المرصفى سبع سنين ؛ وبفضل الكامل للمبرد استطاعت القاهرة أن تزاحم البصرة ، فسيذكر التاريخ أن الأزهر جلس على حصيره المزق رجل أعلم من المبرد ، هو الشيخ سيد المرصفى أستاذى وأستاذ الأساتذة طه حسين وعلى عبد الرازق وأحمد حسن الزيات ، وأول أستاذ تصدر لتدريس الأدب بالأزهر فى العصر الحديث

الله أكبر ولله الحمد !

هذه هى البصرة ذات النخيل

هذه هى المدينة التى تجرى من تحتها الأنهار

هذه شقيقة الفيوم ، على أزهاره وأشواكه أذكى التحيات

هذه هي البصرة ، وما تخوننى عيناى

فاذا قيل إن منظر القناطر الخيرية على النيل منظر لا ثانى له فى الوجود ؛

وإذا قيل إن شواطئ الاسكندرية فى الصيف لا ثانى لها فى الوجود ؛

وإذا قيل إن حيّ الشانزليزيه فى باريس لا ثانى له فى الوجود ؛

وإذا قيل إن السهل الذى تصادفه بعد الانحدار من جبل لبنان منظر لا ثانى له في الوجود ؛

وإذا قيل إن مفترق الطرق بين شارع عماد الدين وشارع فؤاد شيء يفوق الظنون ؛

وإذا قيل إن الغبوق بمصر الجديدة والصبوح بالزمالك نعيم يذكّر بنعيم الفراديس ؛

وإذا قيل إن صبايا المنصورة لها مذاق لا ثاني له فى عالم الجمال ؛

وإذا قيل إن مناظر الكروم في بوردو لا شبيه لها ولا مثيل ؛

وإذا قيل إن بنى المصريين بعضهم على بعض معنى فريد فى الوجود ؛

وإذا قيل إن قبة الجامعة المصريه أعظم قباب الشرق ؛

وإذا قيل إن زكى مبارك أسعد من استصبح بظلام الليل فى بغداد ؛

إذا قيل ذلك أو بعض ذلك فاعرف أن مدينة البصرة هى شيء فريد فى دنيا الشرق ، ودنيا الغرب . هى غريبة الغرائب ، وأعجوبة الأعاجيب . هى فوق الأوهام والظنون ، وإن جهلها فريق من أهل العراق

ما هذه المدينة ؟ ما هيه ؟

لقد استأنست كل الاستئناس حين عرفت أن اللغة العربية لا تزال تسيطر على مثل هذا الثغر الجميل

لقد كبرت وهللت حين رأيت وطن المبرد والجاحظ والحسن البصري وإخوان الصفاء

لقد كبرت وهللت حين عرفت أن للمروءة مواطن لا تقل روعة عن القناطر الخيرية

ثم غلبنى الحزن حين تذكرت أن مناظر شط العرب تشبه مناظر القناطر الخيرية فى الحظ . فمن شط العرب تغافل الشعراء ، وعن القناطر الخيرية تغافل الشعراء

ليس على شط العرب قصور ، وليس على القناطر الخيرية قصور .

الله أكبر ولله الحمد !

هذا طريق النخيل ، وهو صورة أروع من غابة بولونيا ، ولكن أين الظباء ؟

وهؤلاء البصريون وفى عيونهم السحر الحرام أو الحلال ، ولكن أين الشعراء ؟

* * *

عرفت فى البصرة رجلين :

الأول هو السيد تحسين على ، حاكم البصرة ، أو متصرف البصرة

والسيد تحسين علىّ هو مَلَك فى صورة إنسان

هو تحفة من الأريحية العربية التى جاد بها الله على الوجود

السيد تحسين علىّ هو الشاهد على أن شعراء العرب لم يكونوا فى مدائحهم من الكاذبين

السيد تحسين علىّ هو الخليق بأن يقال فيه أطهر من الماء ، وأرق من الهواء

السيد تحسين علىّ هو مجموعة من الخلائق والطباع : فيه أدب مصطفى عبد الرازق ، وتبالُه محمد المشهاوى ، وتغافل منصور فهمى ، وطيبة محمد جاد المولى ، وسماحة على الزنكلونى ، وذكاء لطفى السيد ، وسذاجة زكى مبارك ، وعقل زكي مبارك ، إن كان له عقل !

وبفضل السيد تحسين على عرفت من البصرة فى يومين ما لا يعرفه غيرى فى سنين

أكتب هذا والدمع فى عينى ، فالدنيا ألأم وأغدر من أن تسمح لى بملاقاة هذا الرجل مرة ثانية . فإن كان هذا آخر العهد فحسبى من الوفاء أن أسجل ثنائى عليه فى هذه المذكرات ، ولها قراء يعدون بالألوف

يا سيد تحسين

سلام عليك ، سلام رجل مصرى يحفظ عهد العراق

أما الصديق الثانى فهو الدكتور عبد الحميد الطوخى ، وما أدرى إلى أى بلد أضيف هذا الطبيب ، فقد عرف المنصورة وشبين الكوم والقاهرة وبغداد والبصرة والموصل ، فهو بالاختصار رجل مخضرم : فيه رقة المنصورة وأدب شبين الكوم وعقل القاهرة وذكاء بغداد وظرف الموصل وكرم البصرة ، هو شخصية دولية يحسب لها المنصف ألف حساب

وبفضل هذا الطبيب قضيت يومين فى ابتسام ، فقد ترك سيارته تحت تصرفى يومين ، وكانت فرصة تذكرت فيها الزميل الغالى على الجارم بك ، فمهدى به يهرب منى ، لأنى كنت أرجو أن ينقلنى بسيارته من وزارة المعارف إلى محطة المترو ، وكان ذكاؤه يسعفه بالهرب منى ، فكان يقول : يا دكتور زكى ، أنا رائح عند العشماوى بك ، ثم يروح ولا يعود !

ولما قدم الجارم بك بغداد كنت أنتظر أن ينتفع بخبرتى فيسألنى عن الحياة العلمية والأدبية والفلسفية ، ولكنه لم يسألنى إلا عن شىء واحد ؛ لم يسألنى والله العظيم إلا عن أسعار البنزين فى بغداد !

* * *

نحن فى البصرة

إى والله ، نحن فى البصرة

وفى تلك المدينة تسأل سيدة نبيلة عن طبيب ليلى المريضة فى العراق

وتطلب أن ترانى وحدى ، فأذهب إليها وحدى ولا يكون معنا ثالث غير زوجها الشهم النبيل

ويدوم المجلس ساعات وساعات فى جدل هو أنضر وأشرف ما عرفت العقول

وتجرى على لسان تلك السيدة ألفاظ يوحيها روحها الشفاف فيبتسم زوجها وهو جذلان

وفى غمرة تلك النشوة أنظر ساعتى فأرى الموعد اقترب للمحاضرة التى دعانى إليها سعادة الأستاذ عبد الرزاق ابراهيم مدير المعارف بالبصرة . وتمد تلك السيدة يدها لتوديعى فأبكى لأنى لا أضمن الرجوع إلى البصرة ، أنا الطائر الغريب الذى لم ينعم فى البصرة بغير سواد العيون فى غفوة الزمان ، وهو لا يغفو فى العمر كله غير دقائق

وبعد لحظات أكون فى نادى البصرة فأرى الناس فى انتظارى بالمئات ، إن لم أقل بالألوف . وهناك أرى فتاة جميلة هى بنت عمة ليلى ، فتسرع إلى لقائى بعد انتهاء المحاضرة وهى تقول :

حافظ على شبابك يا دكتور ، فانى أخشى أن يودى التأليف بشبابك

فأتلطف وأقول : لا تخافى على شبابى يا بنيتى ، فهو باق ما بقيت عيون الظباء

وتشجع الفتاة فتقول : أخشى أن يقتلك التأليف !

فأتشجع وأقول : لا تخافى علىّ يابنيتى فأنا لا أخاف الموت ، وإنما يخافنى الموت

ويروعها ذلك فتقول : وكيف ؟

فأجيب : لأن الموت جبان وهو يخشى أن أكتب ضده فى الجرائد والمجلات !

* * *

أفى الحق أننى زرت البصرة ورأيت شط العرب ، ونعمت بكرم السيد تحسين على ، ومروءة الدكتور عبد الحميد الطوخى ، وأدب السيد عبد الرزاق ابراهيم ، ورأيت بنت عمة ليلى ، وشربت الشاى فى منزل السيدة التى تغار من ليلى ؟

لا تصدق ذلك يا قارىء هذه المذكرات ، فتلك أحلام رأيتها فى نومى ولن تعود

إن سمعت أيها القارىء أن جرائد البصرة اعتركت فى سبيلى أسابيع وأسابيع فلا تصدق

إن سمعت أيها القارىء أننى كحلت عينىّ بتراب البصرة فلا تصدق

إن سمعت أيها القارئ أنني عرفت السيد تحسين علي فلا تصدق

إن سمعت أنني زرت قريبات ليلى في البصرة فلا تصدق

إن سمعت أنني ألقيت في البصرة محاضرة سمعها مئات أو ألوف فلا تصدق

إن سمعت أن حاكم البصرة ودعني على المحطة فلا تصدق

إن سمعت أنني عانقت عشرين نخلة في البصرة فلا تصدّق

إن سمعت أن أنهار البصرة داعبتني بالمدّ والجزر فلا تصدق

إن سمعت بأن أسماك شط العرب قبلت يدي وخدي فلا تصدق

إن سمعت بأني لم أنفق درهماً واحداً في البصرة فلا تصدق

إن سمعت أن البصرة هدتني بعد ضلال فلا تصدق

إن سمعت أنني ودعت البصرة بالدمع السخين فلا تصدق

أيها القارئ !

أنا ما رأيت البصرة ، ولا رآني أهل البصرة ؛

وشاهد ذلك أنني لا أزال في عقلي ؛ ولو أنني رأيت البصرة لخبلني حسنها فأصبحت من المجانين

أيها القارئ !

أما سمعت أنني أخترع الأقاصيص ؟ فلتعرف أن زيارة البصرة من تلك الأقاصيص

متى أعود إليك أيتها البصرة مرة ثانية ؟ متى أعود ؟ متى أعود ؟

« للحديث شجون » زكي مبارك

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنـــــكولن

هدية الإصلاح إلى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٩ —

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة و
ـثلها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم



وكان لنكولن يرى في هذا الطواف مدرسته التي يتلمس فيها المعرفة وأي معرفة هو أحق بها من دراسة طباع الناس والوقوف من كثب على أحوالهم بل والنفاذ إلى سرائرهم وخلجات نفوسهم ؟ أي معرفة هو أحق بها من هذه وهو في غد رئيس الولايات ومحطم الأصفاد ؟

لذلك كان في طوافه إذا فرغ من عمله يغشى المجالس وينطلق إلى البلاد القريبة فيسمع ويرى ، ويأخذ بقسط من الأحاديث ، ويدلي بآرائه إذا عن له أن يبدي آراءه في أمر ويستفهم الناس ويسألهم عن أمانيهم ؛ وله مما يأتي إليه من القضايا هاد يرشده في تطلعه وتقصيه

ويظل هذا شأنه حتى ينتهي دور المحكمة فيعود إلى سبر نجفيلد وتنظر زوجه فاذا هو يدخل الباب وفى عينيه الحنين إلى زوجه وأولاده ، وفى أساريره من البشر بقدر ما في جيبه من المال ؛ ثم يدفع إليها بظلة قديمة مهلهلة حائلة الصبغة يمسكها بعضها إلى بعض بخيوط ورقع ، ويلقى إليها حقيبة اتخذها من رقعة بساط قديم بها من الأوراق ما ضاقت عنها جيوبه وما صغرت دونها قبعته ، ويقبل على بنيه فيرفعهم على كتفيه وذراعه كالعملاق وهم فرحون يتسابقون إلى محادثته حتى لتضيع كلماتهم فيما يثيرون من زياط ، وأمهم تكظم الغيظ لهذا الخروج على النظام

وكانت مدرسته فى المدينة إذا فرغ من قضاياه الكتب يستوحيها ، وإن له فيها لغنية ومتعة . وما تلك الكتب التي يقرأ اليوم ؟ إنه شكسبير العظيم الذى رفع المرآة فانعكست فيها الطبيعة واضحة سافرة كأتم ما يكون الوضوح والذى مست ومضة من عبقريته القلب البشرى فأنارت أكثر نواحيه ، وهو مولع منذ حداثته بدراسة النفس البشرية والغور إلى أعماقها ، ومن غير شكسبير يهديه السبيل ؟ لذلك كان إذا تناول كتاباً من كتب القانون ساعة أو بعض ساعة ثم ألقاه عمد إلى مأساة أوملهاة من آثار شكسبير فأكب عليها ونسى كل شيء سواها ؛ فاذا أتى عليها فكر وفكر وظل شاخصاً ببصره فى ثرى الأرض أو فى لازورد السماء كأنما أخذته عن نفسه حال ...

وكانت له فى بعض آثار بيرون متعة ، ومن بينها قصته العظيمة « دوجوان » وهو بين هذا وذاك يقلب صفحات التاريخ العام وصفحات تاريخ بلاده يستزيدها معرفة بأحوال الأمم ويرى فيها خطى البشرية فى شتى مراحلها . أو ليس الزمان يسير به ليضعه بعد سنوات على رأس أمته ؟

ومن عجيب أمر هذا العصامى أنه تناول فيما تناول من الكتب كتب العلوم وأخذ يدرسها وقد جعل لها ساعات من فراغه ؛ فهذا علم النبات له نصيب من جهده ، وذاك علم الحيوان له نصيب ، ثم هذه الكهربة تصيب من عنايته حظاً ليس باليسير !

ولكن فيم العجب ؟ وهل تضيق العبقرية عن شيء ؟ انى وإن كنت أسلم بما للبيئة من خطر وبما للميل النفسى من أثر فى توجيه المرء ، أعتقد أن العبقرية إنما هي فوق ذلك ، وأن العبقرى مهما تناول من الأعمال فانما ينفذ إلى لبابها بقوة نفسه . وهذا لنكولن لو لم يكن المحامي أو رجل السياسة ما قعد به شيء عن أن يكون الشاعر الفحل ! أو لو أنه أفرغ إلى العلم جهده وجعل للدراسة والتحصيل وقته لكان لنا منه العالم الفذ أو الفيلسوف المبتدع . ولقد تأتى له أن يقول الشعر فى بعض المناسبات فجاء شعره صورة من نفسه تشعرك بساطة العظمة والسمو

وإنك لتحس الشعر فى نفسه وتراه ينظر إلى الحياة والناس نظرة الشاعر ؛ ولكن خياله لا يطغى على عقله كما أن عقله لا يأتى على نوازع قلبه . وإنى أراه فى ذلك أكثر الناس شبهاً بجوت شاعر ألمانيا الأكبر ، ذلك الذى كان يجمع بين اللمعة الخيالية والنظرة العلمية والحكمة العملية ...

وكان ابراهام قد بلغ أشده واستوى ، وأخذت نظرته إلى الحياة والناس تزداد عمقاً وهو فى أول العقد الخامس ؛ وصار يحس كأن شيئاً يقلقه ، شيئاً خفيّاً لا يدرك كنهه يقلقه ويحرك نفسه وينقبض له صدره أحياناً ؛ فهل أخذت السياسة تدب فى نفسه من جديد فهو يتأهب ويتحفز ؟

ولاحظ أصحابه أن أمارات الحزن التى ارتسمت على وجهه منذ حداثته أخذت تزداد وضوحاً ، فهو على الرغم من عذوبة روحه فى أحاديثه وطلاقة بشره فى قصصه ، تنطوى نفسه على كثير من الهم لا يعرف مبعثه ؛ وهو إذا خلا إلى نفسه فكر وأمعن فى التفكير ، وقد تربّد وجهه وانعقدت عليه كآبة مخيفة ينزعج لها خاطر من يراه ؛ وكثيراً ما وافاه صديقه هرندن وهو على هذه الحال ؛ وكثيراً ما سمعه يتمتم بمثل أنين المحزون ...

وهو يدعى منذ زمن « أبب العجوز » أطلقها عليه الناس وهو فى ريعان فتوته وربيع حياته ، وذلك لما كان يظهر على وجهه من تجاعيد هي من أثر الهم لا من أثر السنين ؛ وكان يسره أن يستمع هذا الاسم الجديد كما كان يسره أن يسمعهم يدعونه باسمه الآخر « أبب الأمين »

ما باله اليوم مهموماً وقد بسط الله له رزقه كثيراً حتى لقد باتت تجدى عليه المحاماة — على قناعة فى الأجر — ما يزيد على خمسمائة من الجنيهات كل عام ؟ أجل ما باله مهموماً وقد استطاع أن يلقى عن كاهله ذلك العبء الذى آده حمله زماناً ، فلقد خرج

من الدين الأهلي ؟ يا ويح نفسه من هذا الهم الدفين الذى يتزيد منه على الأيام ...

ليس غير السياسة يلقى بنفسه فى غمرتها لتقوم أحداثها بين نفسه وبين همومها . ليس غير السياسة تشغله عن وساوسه وتباعد بينه وبين امرأته التى ما برحت تنغصه وتضايقه فى غير موجب

إن زوجه تعيش اليوم من وراء كده فى رغد ؛ فهو يلقى إليها كل ما تصل إليه يده لا يسألها إلا أن تدفع له ثمن ما يطلب من الأشياء وهى قليلة ؛ وما كانت له بالمـال حاجة وهو الذى لا يعرف أبهة المظهر ولا تغتره شهوات الحياة . حسبه من المال مايسد به رمقه ويستر به جسده ، وأمر ذلك موكول إلى امرأته ؛ ثم ما يفرج به الـكرب عن بعض المساكين وهو يفعل ذلك فى كثير من الأحيان على كره منها . أما هى فلا ترضى بغير فراهة المظهر وأناقة المنظر ؛ تروح وتغدو فى مركبة هى اليوم بعض ما تملك ، وما رأى الناس زوجها فى تلك المركبة قط ؛ وتلبس من الثياب ما تحكى به أهل باريس ، وتقتنى من الأثاث ما تدل به على كثير من الزوجات ... تفعل ذلك وإن كان زوجها ليطلع على الناس فى حلل تطاول عليها العهد وقبعة متضعضعة متغضنة ؛ على أنها تراه فى ذلك هو الملوم ، فهى مازالت تهيب به أن يغير من عاداته وأن يعنى بهندامه ، وهو لا يحفل إلا النظافة ، حتى أنها لم تجد بداً آخر الأمر من أن تسكت وهي كارهة ...

ولقد كان يهرب من المنزل أكثر الوقت ، فيقضي النهار كله فى محل عمله أو يقضى طرفاً منه فى أنحاء المدينة فى بعض المنتديات أو فى بعض الحوانيت ، يتحدث إلى هذا ويسأل ذاك عن حاله ، ويستشيره هؤلاء فى أمر قضائى ، ويعقد غيرهم حوله حلقة يتساقطون فيها الحديث ، ثم يعود إلى منزله فيمضى الوقت فى القراءة أو فى ملاعبة أولاده ؛ وإنه ليحذر فى هذه الملاعبة أن تدخل زوجه الحجرة فجأة فتراهم يركبون ظهره وهو يزحف بهم على البساط ، فتصرخ وتعكر عليهم صفوهم !

عجيب أمر تلك المرأة التى تحب بعلها وتعلى قدره ثم هى لا تفتأ تمد له من أسباب الشحناء والشقاق ما يخيل إليه أنها تبغضه ، لو لا أنه يعتقد أنها ما اختارته زوجاً — على الرغم مما وقع يومئذ منه فى حقها — إلا لما تضمر من محبته والإعجاب به ...

دخلت عليه مرة ومعه رجل من أصحابه ، فسألته عن أمر كانت طلبت إليه قضاءه ، فلما علمت أنه لم يقضـه عنفته وولت محنقة فجذبت الباب وراءها فأحدث ضجة مزعجة ؛ ونظر لنكولن إلى صاحبه وقد قرأ فى وجهه الدهش ، فقال وهو يبتسم ليخفى بابتسامته ما به : إن الأمر هين ، وإن هذه عادة امرأته مردها إلى حدة مزاجها ولن يكربه ما فعلت بالباب فلعله يكفكف من حدتها

هذا طرف من حياة لنكولن فى سبرنجفيلد بعد أن عاد من وشنجطون ، وبعــد أن انتهت الدورة الثامنة لطواف الهيئة القضائية فى تلك الأصقاع ؛ وإنه ليتطلب مخرجاً من هذه المدينة وما كان له من مخرج إلا أن تستثيره السياسة من جديد ...

وآن للسياسة أن تدعوه إليها ، وقدر لتلك الدعوة أن تجىء عن معضلة العبيد ، فلقد باتت تلك المعضلة وهى كبرى المسائل القومية لامناص من مواجهتها إذ صارت تحمل فى تضاعيفها كل ماعداها من المسائل

ازداد ثراء أهل الشمال بسبب الصناعة ، واتسع نطاق التعليم عندهم ، وقوى نفوذهم وتسامت إلى الحياة نظرتهم ، لذلك شاعت فى الشمال حركة الدعوة إلى تحرير العبيد وتعالت أصوات الداعين واشتدت على الأخص حركة النادين بألا يسمح بعد بانتشار العبيد فى ولايات جديدة

وبقى أهل الجنوب أهل كسل وخمول ، لا تزال حياتهم تقوم على الزراعة ، والزراعة عندهم تقوم على أيدى العبيد ، وازداد طلب القطن فاشتدت الحاجة إلى العبيد ؛ لذلك ازدادت فى الجنوب حركة التمسك بالعبيد ، واشتدت على الأخص حركة النادين بوجوب السماح للعبيد بالانتشار فيما عساه أن يضم إلى الاتحاد من ولايات

وماذا يخيف أهل الشمال من انتشار العبيد ؟ إن للمسألة وجهاً آخر إلى جانب الوجوه الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية ، وجهاً لا يقل خطره إن لم يزد عن هاتيك الوجوه ؛ وذلك أن التمثيل النيابى فى أحد مجلسى الاتحاد ، وهو المجلس الأدنى ، كان قائماً كما رسم الدستور على قاعدة لمسألة العبيد فيها دخل كبير ؛ وذلك أن كل ولاية كانت ترسل إلى ذلك المجلس من الممثلين عدداً يصغر أو يكبر حسب عدد سكانها . ومن عجب الأمور أن العبيد ، ولم يكن

لهم حق في شيء حتى في أنفسهم ، قد أقيم لهم وزن في هذا الباب فقيس عدد السكان في الولايات بما يقطنها من بيض وعبيد على أن يعد كل خمس من العبيد بثلاثة من البيض ؛ ومعنى هذا أن انتشار العبيد يزيد عدد ممثلي الولايات الجنوبية في المجلس الأدنى للاتحاد ؛ أما في المجلس الأعلى (مجلس الشيوخ) فكان يمثل كل ولاية عضوان صغرت تلك الولاية أو كبرت ...

ولقد كان أهل الشمال في الأصل أكثر عدداً من أهل الجنوب فكانت لهم بذلك أغلبية في المجلس ولكنها كانت أغلبية صغيرة ؛ ولقد أخذ عددهم يزداد كما ذكرنا فظلت لهم الغلبة ؛ ولكن أهل الجنوب يريدونها أن تكون لهم ولن يتسنى لهم ذلك إلا بانتشار العبيد

لذلك نرى أن معضلة العبيد كبرى المعضلات وأنها ناجمة من عوامل أساسية ترجع إلى كيان الاتحاد نفسه ولمن تكون السيطرة فيه : لأهل الشمال أم لأهل الجنوب ؟ وهما قسمان متباينان مزقت بينهما عوامل البيئة ، هذا إلى ما في المعضلة من عناصر خلقية إنسانية لها نصيبها من الخطر والاعتبار

ولما تقدمت بالاتحاد السنون أصبحت مسألة العبيد بحيث أن أدنى اضطراب فيها يؤدي إلى زلزلة في هيكل الاتحاد كله ؛ ولقد فطن قادة الرأي إلى ذلك من أمد بعيد ، وذلك حينما انضمت ولاية جديدة هي ولاية مسوري إلى الاتحاد عام ١٨٢٠ ولنكولن يومئذ في الثانية عشرة ، فلقد أصدر المجلس قراراً خطير الشأن عرف باسم « اتفاق مسوري » ، ومؤداه أنه لا يسمح بانتشار العبيد شمال خط عرض ٣٦ أعني أن هذا الخط يفصل بين الولايات التي يسمح فيها بنظام العبيد والولايات التي يحظر فيها ذلك النظام

منذ ذلك اليوم بعمل الساسة على توطيد هذا الاتفاق وكان من أكبر الداعين إلى مراعاته دوجلاس ذلك الذي رأيناه منذ أعوام بمجلس إلى جانب لنكولن نائباً في مجلس مقاطعة ألينوس . ومما يذكر له في هذا الصدد قوله : « إن هذا الاتفاق أبدي وجوهري »

ولقد رأينا فيما سلف كيف كان دوجلاس ينافس ابراهام وهو يمد عينيه إلى الهدف ، ورأينا كيف كان يأخذ الطريق على منافسه في كل شيء . وها هو ذا اليوم وله في الحزب الديمقراطي مركز الصدارة ، يرج البلاد رجة عنيفة بخطوة جريئة من خطواته

طلبت ولاية واسعة في الشمال الغربي هي ولاية نبراسكا إلى الاتحاد أن يضمها إليه ، فسرعان ما عادت مسألة العبيد إلى الظهور كما عادت من قبل في عدة حوادث وآخرها أخذ تكساس من المكسيك

عادت المشكلة وتفاقمت ، فهذه الولاية تقع شمال خط عرض ٣٦ ومع ذلك قام رجال الحزب الديمقراطي يدعون إلى جعلها ولاية من ولايات العبيد ! ولا تسل عما قام في الشمال إزاء ذلك من هياج وغضب ونفور ، وهنا يخطو دوجلاس خطوته فيعلن أن قيام العبيد في ولاية أو عدم قيامهم أمر يجب أن يترك الخيار فيه إلى الولاية نفسها ولا عبرة بعد ذلك برأي مجلس الاتحاد . بذل دوجلاس كل ما في وسعه وهو يومئذ عضو في مجلس الشيوخ حتى أصدر المجلس قراراً بذلك ، على الرغم من اتفاق مسوري وعلى الرغم من تصايح أهل الشمال وانزعاجهم

وسرت في الشمال موجة من الهياج والسخط لن يصفها كلام ؛ ورأى كل من له حظ من الفكر أن هذا القرار الذي بذل دوجلاس ما في وسعه لاستصداره هو الجمرة التي سوف تتوهج بعد حين فتندلع منها نيران الحرب الأهلية . ولقد كانت هذه الخطوة من جانب دوجلاس ، وما أعقبها من حوادث ، سبباً في عودة لنكولن كرة أخرى إلى ميدان السياسة وقام بين الرجلين من جديد جلاد وصراع

« يتبع » الخفيف

تطور الحركة الأدبية
في فرنسا الحديثة[1]

فرديناند برونتيير F. BRUNETIÈRE

١٨٩٤ — ١٩٠٦

للأستاذ خليل هنداوى

— ٣ —

حلول العوالم النفسية

إن علم النفس — في كلا العصرين المدرسي والابداعي — لم يصل إلى القول بأن كل شيء في النفس الانسانية واضح جلي. وكورني وديكارت يؤمنان بهذا الوضوح. أما راسين ومدام ڤايت وروسو فلا يؤمنون إيمانهما

يقول هرميون لأوريست :

— من قال لك ... إنني قلت لك إنني قتلت (پاروس) ولكن هذا ليس إلا جزءاً من نفسي الذي أبغضه وأريد نسيانه وأريد جزءاً آخر يقول عكس هذا

والأميرة (كلاف) لا تعرف ولا تريد أن تعرف لماذا لم تحب (كلاف) ولماذا أحبت (آخر) بدلا منه. إنها تناضل ولكنها لا تستطيع أن تفسر أسباب هذا النضال

أصحاب المدرسة الابداعية قد أحبوا الأهواء المضطربة، وملأوا رواياتهم بالمشاعر المظلمة، والنفوس التي يناقض بعضها بعضاً، ولم يجهلوا أن كل شخص إنما هو عالم بذاته بل جملة عوالم مختلفة. ولكن هؤلاء كأولئك قد جربوا أن يعملوا من هذه العوالم عوالم عقلية حيث يمكن النفاذ بوضوح من الأعمال إلى الأسباب. وقد أعطوا أمثلة على ذلك أسلوبهم الذي يعبر - بنظام عن الفوضى - وبوضوح عن التشويش

وهكذا كان علم النفس في المدرسة الاتباعية واضحاً لأنه يرى أن كل شيء يمر بالنفس، وكل شيء في النفس بالشعور. وبين المادتين — سواء تماكسا أو اتحدا — يمكن دائماً أن نجد مذهباً واضحاً قابلا للتحليل. ولكن هذه النظرية (الديكارتية) قد تحورت في القرن الثامن عشر (إذ ليس الإنسان ما يريد أن يكونه، أو ما تسمح له نفسه بأن يكون. فالمادة تعمل فيه وتؤثر فيه وهو يحتمل تأثير المناخ والبيئة، وهو يخضع لجسده ولكل ما يؤثر في جسده. وإن للمناخ والوسط تأثيراً كلياً وباستطاعتهما أن يغالبا الطبع الذاتي، ناهيك بأن التأثيرات التي تأتي من الجسد هي حالات وصدف تفر من كل منطق، ولقد تكون حياتنا الباطنة — في كثير من مواطنها — خالية من العقل

فالوراثة التي جعل منها - زولا - قاعدة علم النفس تستطيع أن ترتب الحوادث النفسية على حوادث سابقة. وأصحاب هذا المذهب يخضعون التحليل العلمي للمنطق العقلي، ويرجعون الحوادث النفسية لحالات عضوية خاضعة لنظم المادة. ولكن هذه المادية قد حطمت والتحليل العلمي قد نوقش فكان صبيانياً !

وها هنا تظهر مبادئ علم النفس المدرسي التي ظن أنها تهدمت. فإن بعض علماء ماوراء الطبيعة من الألمان — كشوبنهاور وهارتمان — جربوا بأن يقولوا : ان العالم لا يُقاد بالعقل، وإنما يقاد بالإرادة دون ان تحسب حساب نفسها، ودون أن تقلق لكونها حقة منطقية. ولقد كان لفلسفة « شوبنهاور » تأثير ذائع في فرنسا حول سنة ١٨٨٠ وهي ولا ريب تمت بصلة الى علم ما وراء الطبيعة. ولكنها تعتمد في كثير من أصولها على نظريات نفسية طبية.

فإن آثار العالم — شاركو — ١٨٧٠ — ١٨٩٠ تعمل على إثبات النظرية القائلة بأنه يمكن أن ينشأ في العقل من موضوع واحد أفكار وإرادات مجهولة لا يعيها العقل الواعي ؛ ولكنها تؤثر في الجسم تأثيراً أشد وأوسع مدى من تأثيره

والعالم — ريبو — بدرسه لأمراض الذاكرة والإرادة يثبت أن فينا — ذاكرات — لانعيها ولكنها تحيا في أنفسنا منتحية بعيدة، وباستطاعة داء ما أن يوقظها ويحييها. (وبطرس جانى) أقر بأنه يمكن في الكائن الواحد أن تقيم نفوس متعددة، كل نفس لها عالمها، وكل نفس تظهر بدورها. والفلاسفة أنفسهم يغادرون العالم الواعي ويفتشون عن المسائل الكبري في عالم غير واع حيث لا سلطة للعقل ولا للمنطق. والطبيب الكبير

(١) عن الأستاذ « دانيال مورنى »

(فرويد) انطلق إلى دراسة الغريزة الجنسية وقال : ان فينا كائنين ، كائناً طبيعياً يلائم طبيعتنا ، وكائناً سطحياً يأتى بتأثير التربية والمجتمع . وشعورنا لا يريد أن يعرف إلا الثانى ، ولكن الأول هو الذى يبقى قادراً قاهراً . وهو الذى يطلب إلينا فى أعماق أنفسنا حركة أو حلماً أو جنوناً أو جريمة . وهذا التحليل النفسى — فى عدم الوعى — لا يبقى مغلولاً فى درس الحالات الشاذة . والفيلسوف — برغسون — يجد أن الشعور أو الوعى إن هو إلا جزء من كوننا العقلى وليس له دور لتحليل شىء أو عمله أو تفهمه . دوره دور عملى ... وهو يوضح فى بعض الأحيان نقطة الأشياء التى يجب أن نعمل عليها ، والناحية من الفكر الذى يستطيع أن يعمل . ولكن عقلنا وشخصيتنا قد يفوقان هذا القسم غير الواعى . وعند برغسون وغيره من الفلاسفة يصبح غير الواعى شكلا من الحياة الروحية ، والينبوع الخفى العريض العميق حيث تجرى برقة حياتنا الواعية النطقية ... ونحو هذا الينبوع اتجه الرمزيون — منذ أعوام — والروائيون

المؤثرات الأجنبية فى الأدب الفرنسى

لم تكن رواية تولستوى ودوستوفسكى رواية رمزية ولا مبهمة ولا رواية لاشعورية . على أنها فى بعض نواحيها تحمل طابع الثقافة الفرنسية المدرسية على أنها أثرت فى الطريقة التى جاءت بها الرمزية . فأشخاصها — ولا سيما أشخاص تولستوى — هم أقل اعتناء بالأفكار من المثل الأعلى ، وأقل ضجراً فى تحليل أنفسهم من أن يجدوا فى أنفسهم بساطة عميقة . ويظهر أنهم يجهدون النفوس ليتفوقوا على ذواتهم المفكرة المعقدة ليبلغوا ذاتاً بسيطة غريزية حيث يجدون سبب حياتهم . فعقلهم وإرادتهم المفكرة تعترضهما اندفاعات لذة عابرة يحتملانها بتوبيخ ولذة . هذه رواية نفوس ابتدائية أو وحى نفوس قد تكون كثيرة الدعوة إلى المثل الأعلى ، ولكنها عاجزة عن إيجاد مثلها الأعلى فى الثقافة العقلية

وهنالك تأثير (إبسن) ورواياته المسرحية ! ففى مسرحياته موضوعات شديدة عنيفة لأنه كتب فى بلد ذى تقاليد راسخة . وأخلاق مفرطة . عمل (ابسن) على تحرير الفرد من حالة خانقة ومن أنانية متسيطرة . أراد أن يحيا الانسان حياته فلا تكون المرأة عبدة للرجل ولا الأبناء عبيداً للآباء والأجداد . وهذه الموضوعات كانت سبب نجاح (ابسن) وقد لا يكون فيها ما يغرى كثيراً ولكن فى (ابسن) شيئاً وعبقرية . فان أشخاصه فى الوقت الذى يعرفون فيه بوضوح ما ذا يريدون ، وعند ما يفهمون أنفسهم ، ويتفاهمون ما بينهم تراهم لا يحللون أنفسهم ، ولا يتناجون ما بينهم محللين أنفسهم كالأشخاص فى المسرح المدرسى والحساب الذى يجعلونه منهم يبدأ ثم ينتهى قصيراً . ولقد يخونون أنفسهم وقد تكون هذه الخيانة اندفاعية . وعملهم لا يظهر إلا لكى يعبر عن ضجرهم ، وكثيراً ما لا يفهمون أنفسهم ، ولا يفهمهم غيرهم . يشعرون بأنهم وحدهم ويحسون أنهم منقادون بما لا يعرف نحو ما لا يعرف فى خباية من الأسرار والحرقة مما لا يندى منه الرواية إلا قليلاً . ثم يأتى زمان يحسون فيه رموزاً — رموزاً لا أفكارا صافية ، ولكنها هادئة لا مضطربة . الحياة ليست خلاله منتظمة ولكنها معكوسة فيه كثيراً ، والفن أو عدم الفن يشدد تأثير العمق والأسرار

« يتلى » خليل هنداوى

في عيد الربيع

البعث*

للأستاذ محمود الخفيف

خَالِسِ الزَّهرَ في مُتوع نَهارِهْ   واستشفَّ الخفيَّ من أسْرَارِهْ
مُدَّ عينيكَ في مطارفه الخضْـ   رِ مَليًّا واسْتَشْمِرِ الحسْنَ وانْشَقْ
نَفحةَ الخلدِ من شذَى نُوَّارِهْ

هوَ ذا البعْثُ هزَّ كلَّ مكان   ومَشى في الرِّياض جَمَّ المعاني !
أطلقِ النفْس في مواكب آذا   رَ وغيِّبْ وساوسَ القلب واطرحْ
خلجَاتِ الهموم في تيَّارِهْ

سَرِّح العينَ هل ترى غير بِشْرٍ   ونماء في كلِّ وادٍ وسِحْرٍ ؟
والتِماع وطيلسَانٍ وَوَشْيٍ   وتهَاويلَ تلمَحُ النفْسُ فيها
من معاني الربيع رُوحَ ابتكاره

الضُّحَى زَاخرٌ بفَيْضِ الحياةِ   والرَّوابي مِسْكيَّةُ النَّسماتِ
تَنْهَلُ النفْسُ من جَمَالٍ وعطْرٍ   وسناً ساحرٍ تُطيفُ برُوحي
لُمَعُ الوَحْي من وَراء ستاره !

يقْظَةٌ في الرِّياض توقظُ حِسِّي   وطُيوفٌ بهَا تَملَّكُ نفْسي
يَخفِقُ القَلْبُ للجمال ويهفو   للضُّحَى مثْلَ زهرَةٍ نبَّهتْهَا
نفَحَاتٌ من دِفْئِهِ وازْدِهارِه

نثْرَةٌ ها هنا ونَقْشٌ بديع   واتساقٌ هُنَا وحَشْدٌ جميعٌ
زِينةٌ صاغَهَا الرَّبيعُ فنُوناً   هِيَ في العيْنِ بهْجَةٌ وهْيَ لَحْن
مَلَكَ القَلْبَ واستوى في قرَاره

زَهرَاتٌ فيهنَّ يغْرقُ طَرْفي   تتحدَّى ألوانُها كلَّ وَصْفِ
طاف بالنفْسِ عندهُنَّ شعُور   أين منه البيَانُ ؟ أين القوافي ؟
أيْنَ نُورُ الصبَاح من أنوارِه ؟!

خطرَاتٌ تميلُ بي للسُّجُودِ   وَرُؤًى مِن وَراء هذا الوجود !
شاع في نَفْسيَ الجلالُ ومَسَّتْ   من هدى البَارِئِ المصوِّرِ قلبي
لمحَاتٌ تُشْتَامُ في آثارِه

* بدأت في مستهل الربيع وحالت دون إتمامها شواغل حتى جاء نشرها في عيد من أعياده

يا رُبوعًا أفوَافُهَا سَحَرتْني   رَحْمَةُ الحُسْنِ حَوْلَها شغلتني !
تتبارى جُمُوعها باسِمَاتٍ   وادعَاتٍ في زَهْوِهَا خَفِرَاتِ
شاقَهَا للرَّبيع طولُ انتظارِه

املأِي القَلْبَ من حديثِ الشبابِ   وأفانين لهْوِهِ المُسْتَطَاب
إيه يا زهْرَةَ البَنَفْسج هاتي   ما تحفظينـــه وأفيضي
من حديث الهوى ومن أخْبَارِه

وصِفي يا وُرُود وَرْدَ الخُدُودِ   ورُوَاءَ الصِّبَا وطُهْرَ الوُعودِ
هِيهِ! هذا الرَّفيفُ هَاجَ فؤادي   هاتِ! هاتِ الحَديثَ حُلوًا نَديًّا
كنسيم الرَّبيع في أسْحارِه

صَوِّري لي من الجمالِ الشِّفَاهَا   حالماتٍ رَفَّتْ عليها مُنَاهَا
هَدْهِدِي القَلْبَ يا ثُغُورَ الأقاحي   رَوِّحِيهِ بهمْسَةٍ من عِتابِ
كم عَصَرْتُ السُّلافَ من قيثارِه

العَصافيرُ في العِشَاشِ تغَنَّى   ما أرى مِثْلَ لحْنِهَا أيَّ لَحْنِ
فَرَحٌ صادِقٌ ولَهْوٌ غريرٌ   وهناءٌ ونشـــوةٌ وزِيَاطٌ
يَرْغَبُ القلْبُ بينها عن وَقَارِه !

واليَمَامَاتُ قَدْ ذَكَرْنَ الهديلاَ   فنَظَمْنَ الغِنَاءَ لحناً جميـــلاَ
ناعمَاتٍ في أيكها خافضَاتٍ   يملأُ السمعَ من غِنَاها حنين
لو حكى العُودُ شَجْوَهُ لم يُجَارِه

والفَراشُ الطَّرُوبُ حُلْوُ الطَّوَافِ   في الرُّبا، في البطاح، حولَ الضِّفَافِ
حائمٌ خافقٌ بعيدٌ قريبٌ   جَدَّ في الرَّوْضِ سابحاً وتهاوَى
حائرًا بين زَهْرِهِ وثِمَـــارِه

فَرْحَةٌ هزَّ سِحْرُهَا كلَّ حيٍّ   صُغْتُ لحني من لحنِهَا العبقريّ
تتوالى الأيامُ كرًّا ويبقى   سِحْرُ هذا الجمالِ يُبهجُ نفسي
كلما طاف طائفٌ من نهارِه

هَالِ. ها(*) يا بواسمَ الزَّهَرَاتِ !   هالِ ها. يا سواجعَ الأيكِ هاتي !
ما غدٌ ؟ هذه الهُنَيْهَةُ حَسْبي   واعظاً ، بتَّ بعدَهُ لا أبالي
بصروف الزَّمانِ أو أكداره

الخفيف

* نستعير هذه الكلمة من أستاذنا الجليل محمد فريد أبو حديد وقد ابتدعها كلمة نداء مرحة تقوم مقام كلمة Heigh ho الانجليزية

شـــوقى و الرافـــعى
فى النـــــحو
لأســتاذ جليــل

قال الأستاذ محمد سعيد العريان فى مقالاته الأنيقة (الرافعية) فى (الرسالة) الجامعة الغراء : « وكانت — يعنى مقالة الرافعى فى شوقى فى المقتطف — دراسة أعتقد أن أحداً من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقى أو يبلغ ما بلغ الرافعى بمقاله . وكان مما أخذ الرافعى على شوقى وسماه غلطات فى النحو أو اللغة أن شوقى ابتدأ بالنكرة فى قوله :

ليـلى ، مناد دعا ليـلى فخف له
نشوان فى جنبات الصدر عربيد

أقول : الحق أن مقالة الأديب الكبير الأستاذ الرافعى فى (أمير الشعراء) — رحمة الله عليهما — هى من أبلغ ما قال القائلون فى شوقى ، وأما قول الأستاذ محمد سعيد : إن شوقياً ابتدأ بالنكرة فى قوله : ليلى ، البيت ، فهناك اشتباه والأشياء تشتبه . وهذا البيت لم يروه الأستاذ الرافعى ، والذى أورده فى مقالته فى المقتطف الغراء فى أبيات وخطأ (نحويته) وصوبها الكاتب المشهور الأستاذ (العقاد) هو هذا :

إن رأتنى تميل عنى كأن لم تك بينى وبينها أشـياء

وابن مالك يقول : « وبعد ماض رفعك الجزا حسن » ويقول ابن عقيل : « إذا كان الشرط ماضياً والجزاء مضارعاً جاز جزم الجزاء ورفعه ، وكلاهما حسن » وأدق من قولى ابن مالك وابن عقيل قول تلميذ (الخليل) فى (الكتاب) « وقد تقول : « إن أتيتنى آتيك أى آتيك إن أتيتنى » ، قال زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسألة
يقول : لا غائب مالى ولا حرم »(١)

(١) الخليل : المحتاج ذو الخلة ، والحرم بمعنى الحرام أى إذا سئل لم يعتل بغيبة مال ولا حرمه على سائله (الشنتمرى)

وفى (كتاب الله) : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب »

فالرفع حسن والجزم أحسن ، وللنحاة فى الترجيح أقوال

وأما قول شوقى : «ليلى مناد دعا ليلى فخف له الخ» وابتداؤه بالنكرة فنذكر الكلام فى ذلك لابن الدهان وقد استجاده الرضى فنقله فى (شرح الكافية) : « قال ابن الدهان — وما أحسن ما قال : إذا حصلت الفائدة فأخبر عن أى نكرة شئت ، وذلك لأن الغرض من الكلام إفادة المخاطب ، فإذا حصلت جاز الحكم سواء تخصص المحكوم عليه بشىء أو لا . فضابط تجويز الإخبار عن المبتدا وعن الفاعل سواء كانا معرفتين أو نكرتين مختصتين بوجه أو نكرتين غير مختصتين بشىء — واحد : وهو عدم علم المخاطب بحصول ذلك الحكم للمحكوم عليه . فلو علم فى المعرفة ذلك كما لو علم قيام زيد مثلا فقلت : زيد قائم عد لغواً ، ولو لم يعلم كون رجل ما من الرجال قائماً فى الدار جاز لك أن تقول : رجل قائم فى الدار ، وإن لم تتخصص النكرة بوجه ، وكذا تقول : كوكب انقض الساعة ، قال الله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة »

* * *

الحديث عن (شوقى) ذكرنى عبارات من مرثية قيلت فيه :

بلبل (الكرمة) ولى ! أين غاب البلبل ؟
أين غاب البلبل ؟ !
زهر (الكرمة) يبكى بدموع ظاهرات فى الصباح !
فنن (الكرمة) آس : لا اهتزاز ، لا ارتياح ، لا طرب !
بهجة زالت ، وجاءت وحشة ، وعرا (الكرمة)
حزن لا يريم(١) !
أبا على ، الشعر بعدك ما نطق !

الاسكندرية « * * * * »

فى كلة (المخترعات وكتاب الفصول والغايات) : « ويأوى فى فراشه » وهى : (ويأوى إلى فراشه) وفيها : «الصوان» وهى (الصوات) بالتاء

(١) لا يريم : لا يفارق

في المـــــذهب الرمزي
تعليـــق
للدكتور بشر فارس

قبل أن يندفع قلمي في التعليق أحب أن أشكر لصاحب « الرسالة » انبساطه إلى مسرحيتي « مفرق الطريق » إذ سمح بنشر نقد مسهب لها لأسبوعين مضيا، ثم بحث مستفيض في المذهب الرمزي لأسبوع مضى، وكلاهما من قلم الأستاذ زكي طليمات مفتش التمثيل بوزارة المعارف . وكأن صاحب « الرسالة » يصرّ أن تنقل الأساليب المستحدثة على يده إلى قراء العربية . أليست « الرسالة » رسالة ؟

والحق أني ما كنت لأتوقع أن يهتز القراء حتى النقاد لمسرحيتي ذهاباً مني أنها تنحرف عن ألوان الأدب المروفة عندنا انحرافاً شديداً فلن يكون مصيرها سوى الضياع ، حتى فوجئت بطائفة من الرسائل والمقالات جعلتني أري الشرق العربي غير نفور مما يهجم عليه من باب كان مغلقاً ، بل غير جزوع مما يحمّل الفهم بعض المشقة . وإليك دليلا على هذا ما بعث به الأستاذ أمين الريحاني : « تصفحت الرواية أولا بشيء من الاستغراب والدهش . ثم قرأتها لأفهمها ففهمتها — أظن — واستكبرتها على صغرها . ثم أعدت قراءتهـا للمرة الثالثة متلذذاً بمحاسنها الفريدة الجمة ، برقائقها الصوفية ، وحقائقها المادية ، ونظراتها الفلسفية ، وروائعها الفنية ... » . فإني لفرح بهـذا الأمر لأني حققت ما قلت في توطئة المسرحية : « وعندي أنه قد حان الزمن الذي فيه أصبح الإيجـاز والإيماء في الانشاء الرفيع أحب إلى القارئ العربي المهذب من التطويل والتذييل ... »

هذا وقد خطر لي أن أصنع للمسرحية توطئة جامعة أبسط فيها طريقة المسرحية لأهيئ الأذهان إلى الوقوف عليها ، لا تطاولاً مني ، معاذ الله ! ولكن تلطفاً في استدراج القارئ إلى القراءة وكشفاً عن نزعة قلمي . وإذ لم أجد بداً من إطلاق عنـوان على تلك الطريقة دونت هذه الجملة : « هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزية — إذا شئت . » أتدري لم قلت « إذا شئت » ؟

إن لفظة الرمزية في الأدب الحديث تصرف ذهنك على الفور إلى الطريقة التي ابتكرها نفر من شعراء الفرنسيين خاصة حول سنة ١٨٨٦ ، تمرداً على الأسلوب الوضعي الجامد الذي كان له الأمر في ذلك العهد ، وانقلاباً إلى وحي الوجدان : إلى تغليب الإحساس على العقل . وروّاد الرمزية (ألويزوس برتران) و (جيرار دي نرفال) ولا سيما (بودلير) الفحل . وأما أبطالها فـ (أرتر رامبو) و (بول فرلين) و (مالارميه) ثم (لانورج) و (كاهن) و (رودنباخ) و (فرهارن) و (موردياس) و (ستوارت مِرِل) و (هنري دي رينييه) و (ديجاردان) و (سامان) وغيرهم . وسرعان ما انتحى المذهب نواحي مختلفة بالإضافة إلى الأداء وإن استقامت جميعها على عمود واحد من الاستلهام . وإذا نحن وقفنا عند أبطال المذهب أصبنا (رامبو) يعول على السحر اللفظي ، و (فرلين) على الترنم ، و (مالارميه) على الابهام . وقد دُوّنت هـذه النواحي إلى جانب ما وقع بين أصحابها من المناظرات في مجلات صغيرة أنشئت للدفاع عن الرمزية وبثها فضلاً عن هدم الشعر الاتباعي القائم ، اذكر منها : le Symboliste, la Cravache, le Scapin وكان لأجل « الرمزية » — فوق هذا — قهوات يجتمعون فيها ، قد أدركت واحدة منها في باريس قبل أن تنقلب قهوةً حديثة ، وكان اسمها le Panthéon ، وهي اليوم Caboulade

وقد راسلت « الرمزيةَ » في الشعر « رمزية » في الموسيقى والفن تأخـذ مأخذها . وأمهر الموسيقيين الرمزيين (كلود ديبوسي) ، وأبرع المصورين (بوفيه دي شافان) ، والنحاتين (رودان) معلم جبران خليل جبران

ثم إن « الرمزية » الشعرية امتدت إلى ما يلي فرنسا شمالاً وجنوباً . فظهر في ألمانيا (رلكه) و (ديمل) ، وفي انجلترا (ييتس) ، وفي البرتقال (أوجينيو دي كاسترو)

وأما مصادر هذه « الرمزية » فيتنازعها الأدب والفلسفة والفن والموسيقى . وإذا نحن قررنا أن الرمزية إنما هي — آخر الأمر — التعبير عن الحيـاة الباطنة رجعنا خاصة إلى تأويل (بودلير) : « الفن الخالص أن تخلق سحراً يوهم ويوحي فيضم في آن الذات والموضوع » ، وإلى قولة (شوبنهور) : « العالم هو ما يتمثل لي » ، وإلى منهج نفر من المصورين الانجليز الموسومين

بهـذا اللقب Pre - Raphallite Brotherhood ، وهو منهج يصعد إلى سنة ١٨٤٨ وقوامه أن المصور ينبغي له أن ينبذ القواعد المضبوطة ليترك عينه تقرأ على هواها فى صحيفة الطبيعة . ثم إلى ثورة (ڤجنر) على الأوبره التقليدية وإدراجه « العنصر الإنساني الخالص » أو « Rein menochlick » فى المأساة الموسيقية

* * *

تلك هى الرمزية الأولى فى الأدب الأفرنجى الحديث ولاسيما فى الشعر . وقد انحلت إلا قليلاً عند مختتم القرن التاسع عشر . إلا أنها شقت طريق أدب العصر ، وخلّفت مذهباً آخر هو مذهب الـ Surréalisrne (ماوراء الواقع) . بل إنك ترى الأدب والفلسفة وعلم النفس والموسيقى والفن حتى الرقص تجرى اليوم إلى غاية واحدة ، وكل واحد منها يؤثر فى الآخر . وكان بودى أن أشير إلى كل هـذا حتى يأتى اليوم الذى فيه يتاح لى أن أكتب رسالة ضافية فأشرح هـذا الجانب من الثقافة الحديثة . ولكنى أخشى الإطالة وأكره أن يتطرق الملل إلى قراء «الرسالة». وجل ما أثبته اليوم أن الظاهرة الغالبة على آداب هـذا العهد وفنونه فى بلاد الفرنجة إنما هى الرغبة فى الفرار ، لا الفرار من الدنيا أنفةً ومرضاً نفسانياً على النحو الابتداعى (الرومنتيكى) ، ولكن الفرار من المنقول والمصطلح عليه ، ومن القواعد القائمة والصناعة الموقوفة ، ومن العالم المتناسق المختلق اختلاقاً بكد أذهاننا ، ومن الطبيعة البشرية الموثوقة ، ومن العقل المتصلب والمنطق المتجمد واليقين الملفق

* * *

أتدرى لِمَ قلت : « ... إذا شئت » ؟

إنى أردت أن أستدرك ، محاذرة أن ينصرف ذهن القارئ إلى الطريقة الرمزية الأولى خاصة . وقد أملت هـذا الاستدراك بخمس صفحات بسطت فيها وجهة الأسلوب الذى أجريت عليه المسرحية ، فجاء حديثى عن الفلسفة والأدب كالتأسيس ، وكلامى على التصوير والموسيقى والرقص كالتمثيل . ثم إنى لم أعرض لتاريخ الرمزية لأن التوطئة رسالة فنية لا شأن للنقد فيها . على أن ذلك الأسلوب إنما هو أسلوب « اتساق له قلمى ورفّت إليه نفسي بعد التحصيل والروية والاجتهاد » وإن كان متأثراً بالرمزية الأولى ولاسيما بالمذهب الذى خلفته . وهذا الذى حملنى على أن أختار لفظة « الرمزية » دون غيرها فضلاً عن أن المسرح الحديث لا يزال يحمل هذه اللفظة عنواناً له

حقاً إن الرمزية الأولى كانت قد أوحت مسرحيات مثل la Petite Bête (لبول فور) و Intérieur (لميترلنك) و Ubu Roi (لجارى) مثلت كلها فى Théâtre d'Art و Théâtre de l'œuvre . غير أن المسرح الحديث وإن سماه أهل الفن « المسرح الرمزى » من باب الاصطلاح لينهض على عناصر تزيد على التى عرفتها الرمزية الأولى : ينهض على نتائج علم النفس الحديثة (تجارب «شاركو» فى التنويم والإيهام ، و«ريبو» فى أمراض الذاكرة والإرادة الشخصية ، و « فرويد » فى أحوال العقل الباطن ، و«برجسون» فى تغلب المضمر الذى فى النفس على البارز) ونظريات الفلسفة (الإدراك بالبصيرة لا بالعقل على نحو مارى « برجسون» ثم الشك فى العلم المطلق والرفع عن المواضعة حسب مذهب علماء الطبيعة لهذا العصر) وقصص جماعة من الروس مثل « دوستيوفسكى وتولستوى وجوركى » ففيها يبرز الخلق كأنهم على فطرتهم ، ولكنها فطرة من صفت نفسه حتى أنها تأبى القناعة بثقافة الذهن وحده) ، ومسرحيات أدباء الشمال مثل «بيورنسن» ولا سيما «إبسن» حيث المغالبات النفسانية تصرع قوى الحياة الاجتماعية ، ثم قصص فئة من الانجليزيات مثل « كاترن منسفلد » و«فرجينيا ولف» لما يطرد فيها من التأثرية المحضة . ثم أضف إلى هذه العناصر ما انبثق من جانب الفنون الأخرى كالتصوير التعبيري والموسيقى التأثرية والرقص الإيهامى

والمسرح الرمزي الحديث على ألوان . ولا أحب أن أفيض فى هذا الموضوع الجديد . وحسبي أن أذكر أسماء بعض رجاله النابهين ، وهم : (إبسن) و (هوبتمن) و (ميترلنك) وإن رجعت طريقته إلى الرمزية الأولى ، و (هنرى باتاى) أحياناً ، و (لينورمان) وإن كانت طريقته قريبة المأخذ ، و(كلوديل) وإن نزع إنشاؤه إلى ماوراء الطبيعة على مثال إنشاء صاحبه ڤاليري الشاعر ، و (جانتيون) مؤلف قصة « مايا » التى شهدتها ثلاث مرات فى مسرح (مومبارناس) فى باريس سنة ١٩٣١ ، و (جان كوكتو و(جيرودو) و(بريستلى) أخيراً و(أليس جرنستبرج)[1]

(١) وفى « مقتطف » دسمبر سنة ١٩٣٧ مسرحية فى فصل واحد لهذه المؤلفة منقولة عن الانجليزية بقلم الآنسة ميترفا عبيد

و (بيرندللو) العظيم ثم (روبندرونات توجور) إذا شئت، وإن كانت مسرحياته تشف عن وثبات الصوفية الهندية

كتبت «هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزية — إذا شئت. غير أن النقاد وقفوا عند مفاد الرمزية الأولى أو كادوا سواء أأهملوا الخوض في مفادها أم خاضوا. وممن خاض الأستاذ صديق شيبوب في صحيفة «البصير» (٨ ابريل ١٩٣٨) والأستاذ زكى طليمات في مجلة «الرسالة». ثم إن الأستاذ ميخائيل نعيمة كتب إلى يقول: «... ومسرحيتك هذه تدرج على الطريقة الرمزية، طريقة فاليري (الشاعر المذكور فوق هذا الكلام) وهى كزىّ جديد فى الأدب العربي حقيقة بأن نؤهل بها . . . ووقفت فى مقدمتها (يعنى توطئتها) على أدق وأجمل بيان قرأته فى العربية عن الطريقة الرمزية وغاياتها . . .»

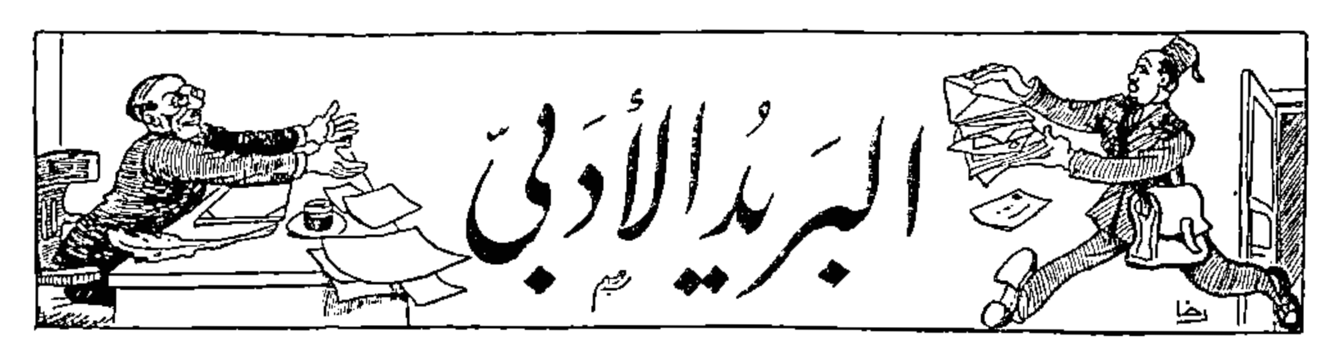
إلا أنه لا يفوتنى أن أذكر أن ناقداً واحداً تنبه لما أردت. فقد نشرت صحيفة (الجورنال ديجيت) le journal d'Egypte البارزة فى القاهرة، يوم (١٩ ابريل ١٩٣٨)، مقالا غزيراً باللغة الفرنسية للأستاذ إدجار جلاد، جاء فيه أن الرمزية فى «مفرق الطريق» بين التأثيرية والتعبيرية وأنها تتميز بالبصيرة الشرقية فهى لا تماثل الرمزية الأولى

أن أدفع وهماً ذلك الذى بعثنى على كتابة هذا التعليق. وقبل الخروج منه أحب أن أشكر للأساتذة ميخائيل نعيمة وزكي طليمات وصديق شيبوب فضلهم. وهل للأستاذ زكي طليمات أن يأذن لى فى أن أكاشفه بأنى فرحت فرحاً شديداً لما أصبته يستعمل فى مقاليه بعض تراكيب جرت على قلمى فى توطئة المسرحية، منها: «المحسوس وما وراء الحس»، «لوامع النفس»، «منعطفات الروح ومثانى المادة»، «التخيل المنسرح»، وما فرحى إلا لأنى أرى تراكيب اجتهدت فى سياقتها تنطلق على قلم كاتب مِفَنّ، وكنت أخشى أن تموت يوم ولدت. ثم هل للأستاذ زكي طليمات أن يفسر لى قوله فى بحثه فى المذهب الرمزى «إن ب. ف. يكتب متثبتاً بما تلقنه؟» وفى «لسان العرب» «وقد لقننى فلان كلاماً تلقيناً أى فهمني منه ما لم أفهم»[1]

بشر فارس

(١) وثمة شيء آخر — ذكر الأستاذ طليمات أن جبران خليل جبران من رواد الرمزية فى الأدب العربى المستحدث. والذى يبدو لى أن جبران إنما جرى على منهاج (وليم بليك) الانجليزى William Blake (١٧٥٧ — ١٨٢٧) ذلك الشاعر الصوفى والفيلسوف المحدث القلب





وفاة الأستاذ السكندري



نعي يوم الثلاثاء الماضي الأستاذ الشيخ أحمد الاسكندري بك ، وكان وقع نعيه أليماً ، فالفقيد أستاذ جليل من المثقفين والمعلمين ، وكان لا يزال كثير النشاط ، متوفراً على البحث والدرس ، وآخر مواقفه المشهودة تمثيله لمجمع اللغة العربية الملكي في المؤتمر الطبي العربي في بغداد حيث أعلى صوت مصر ورفع كلمتها

تخرج الفقيد في دار العلوم سنة ١٨٩٨ ، واشتغل بالتدريس في المدارس الأميرية حتى عين أستاذاً للأدب العربي في دار العلوم سنة ١٩٠٧ ، وفي سنة ١٩١١ انتدبته وزارة المعارف للسفر إلى مؤتمر المستشرقين

وفي سنة ١٩٣٤ استدعته الجامعة المصرية لتدريس الأدب العربي بكلية الآداب . ثم اختير عضواً في المكتب الفني بوزارة المعارف . وكان عضواً في مجمع اللغة العربية الملكي منذ نشأته . وفي فبراير الماضي اختير عضواً في المجلس الأعلى لدار الكتب

ولم يكن الفقيد إبان اشتغاله بالتدريس بالمدرس الذي يحصر جهده في دائرة المدرسة ، وإنما دأب — حياته — على دراسة اللغة العربية وآدابها ، وكان أثره بارزاً في توجيه الدراسات العربية توجيهاً حديثاً ، فهو مؤلف كتاب « الأدب العربي في العصر العباسي » وكتاب « الوسيط » الذي اتخذه كثير من المؤلفين في تاريخ أدب اللغة العربية مرجعاً ومنهجاً ، فكان بمثابة الأصل الذي قام عليه كثير من الكتابات في الآداب العربية . وهو أول المؤلفين الحديثين في فقه اللغة ودراسة اللهجات ، وأول من قام بتدريس فقه اللغة في دار العلوم

وللجهود الفقيد في الدراسات الأدبية واللغوية أخذ مكانة ممتازة بين العلماء وأفسحت له الأوساط العلمية صدرها فكان فيها السبّاق . وهو آخر طبقة جليلة من الأعلام الذين أنجبتهم دار العلوم مثل المهدي والخضري وحفني ناصف ، فكان لهم في الدراسات العربية أثر خالد

ومما يذكر أن كثيراً من جهود الأستاذ السكندري في دراسة اللغة العربية قام عليها نتاج مجمع اللغة العربية ، فمحاضر الجلسات وصحيفة المجمع زاخرة بآثاره ودالة على وفرة علمه

جزى الله الفقيد خيراً عن خدمته للغة كتابه الكريم

أسبانيا في نظر الرحالين المسلمين

سيدي صاحب الرسالة

بعث إلى صديقي (هنري بيريس) Henri Pérès بكتاب غزير المادة يقع في مائتي صفحة من القطع الكبير ، ظهر في باريس في مختتم سنة ١٩٣٧ على يد الناشر Adrien Maisonneuve وعنوان الكتاب l'Espagne vue par les voyageurs Musulmans de 1610 à 1930 (أسبانية في أعين الرحالين المسلمين من سنة ١٦١٠ إلى سنة ١٩٣٠)

والأستاذ (هنري بيريس) مستشرق فرنسي معروف وهو من أساتذة كلية الآداب في الجزائر ، وله طائفة من المباحث

تعرض خاصة للأدب العربي ولا سيما الحديث منه . وأما الكتاب الذي بين يدي فيسرد تأثرات من رحل من المسلمين إلى أسبانية ونظراتهم . وإليك أسماءهم : الوزير الغساني (القرن السابع عشر) الزياني والغزال (القرن الثامن عشر) ، الكردودي وابن التلاميد التركزي الشنقيطي والورداني واحمد زكي باشا (القرن التاسع عشر) محمد فريد وأحمد شوقي ومحمد كرد علي ومحمد لبيب البتنوني وسعيد أبو بكر ومصطفى فروخ (القرن العشرون)

وقد جاء السرد على الطريقة العلمية بما قام عليه من المراجع وما غلب عليه من التحليل البعيد الغور . وكثيراً ما نقل المؤلف إلى اللغة الفرنسية بعض النصوص العربية من شعر ونثر تتناول وصف الطبيعة أو النظر في الأخلاق والتاريخ والفن على وجه عام

وفي رأي المؤلف أن المسلمين الذين دونوا رحلاتهم الأسبانية ينقسمون قسمين : أما الأول ، وامتداده من سنة ١٦١٠ إلى سنة ١٨٨٥ ، فأصحابه عدوا أسبانية وطناً مغتصباً وأهله إخواناً أفسدت النصرانية نزعاتهم وبدلت من عاداتهم ، ثم كتبوا ما كتبوا وهمهم تقرير الملموس دون تدوين المحسوس . وأما القسم الثاني فأصحابه — وفي مقدمتهم أحمد زكي باشا في كتابيه « السفر إلى المؤتمر » ثم « الرحلة الكبرى » والبتنوني « رحلة الأندلس » ، ومصطفى فروخ — « رحلة إلى بلاد المجد المفقود » بيروت — فقد عدوا أسبانية « الفردوس المفقود » فأطلقوا ألوان شعورهم تحسراً على ما ضاع وفخراً بما كان وغضباً مما حدث وفيهم المؤرخ والشاعر والسياسي والاجتماعي والفنان . ثم رأوا أهل أسبانيا قوماً لهم معايب ومحاسن . أما هذه فترجع في الغالب إلى أرومتهم العربية ، وأما تلك فتصدر في الغالب عن الحضارة الأوربية وعن العنصر الأسباني الأول . فجاءت كتابتهم أقرب إلى التأثر منها إلى التفكير ، وطريقتهم ألصق بالذاتية منها بالموضوعية على ما يطرد في رحلاتهم من ألوان الوصف الدقيق للأخلاق والعادات والعمران واللغة والفنون

واسلم سيدي الأستاذ ، لمن يخلص لك الود بشر فارس

بعثة السر جون مري ونتائج رحلتها العلمية

تلقت إدارة الأحياء المائية منذ أسبوع ثلاث رسائل جديدة من بعثة السر جون مري العلمية البحرية عن نتائج رحلتها الأوقيانوسية

وإحدى هذه الرسائل وضعها المستر (ماكان) من أعضاء البعثة عن « نجوم البحر » ، وهي من الأحياء المائية التي تعيش في المحيط الهندي ، وقد ذكر فيها أن البعثة أحصت من هذه الأحياء ١١٦٠ نوعاً تنقسم إلى ٥٣ قسماً منها ١٨ نوعاً جديداً كشفتها البعثة في رحلتها الأخيرة إلى الأوقيانوس الهندي ، وأطلق على أحد هذه الأنواع اسم الكولونل سيول رئيسها ، وسمى نوع آخر باسم الدكتور حسين فوزي مدير إدارة الاحياء المائية وكان من أعضاء البعثة المصريين ، وسمى نوع آخر باسم الدكتور عبد الفتاح محمد « من الأعضاء المصريين أيضاً » ونوع باسم السفينة « مباحث »

والرسالة الثانية وضعها الدكتور محمود رمضان عن الأحياء المائية ذوات القشور كالجمبري ونحوه

والثالثة وضعها الدكتور ستوخ الأستاذ في متحف التاريخ الطبيعي في لندن عن نوع من الأحياء المائية يدعى (البتروبودا)

مؤتمر مشاكل الشباب — دعوة مصر للاشتراك فيه

تلقت وزارة الخارجية دعوة موجهة إلى الحكومة المصرية للاشتراك في مؤتمر دولي (لدراسة مشاكل الشباب) يعقد في غضون الصيف القادم بنيويورك

وقد أحالت الخارجية تلك الدعوة إلى وزارة المعارف ، فرأت إخطار الجامعة المصرية بنبأها حتى إذا رغبت في الاشتراك فيه اتخذت التدابير لإيفاد من ترى إيفادهم لتمثيلها في المؤتمر المشار إليه

وقد درجت أمريكا على عقد دورات هذا المؤتمر فيها وأخذت في بث الدعاية له في الممالك والحكومات المتباينة . ولم تنفل أوساط الشباب وبيئاته بل تمنحهم امتيازات تحببهم في السفر إليها للاستفادة منه

ويتناول المؤتمر بالبحث والدراسة كل ما يتصل بحياة الشباب ومشاكله ، وتوجيه الرغبات للحكومة بحلها على ضوء النظريات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية الجديدة

مصر والآداب الفرنسية

نشرت جريدة « الجورنال » مقالة مسهبة للمسيو فرنسوا بياتري بعنوان « مصر والآداب الفرنسية » امتدح فيها سير الحياة العلمية والأدبية في مصر وأظهر ما للمدارس الفرنسية من الشأن العظيم ، وقال إن عدد الأساتذة والمدرسين فيها يبلغ ٢٤٨٥ منهم ٧٨٢ من الفرنسيين و ١٧٠٣ من المصريين والسوريين وأما

مجموع عدد الطلبة فيها فيبلغ ٥٢٤ر٤١ منهم ١٩٦٥ من الفرنسيين

ثم نوه بمزايا التفاهم والاتفاق بين البعثات الفرنسية الدينية والعلمية ووصف ما انطبع فى نفسه من زيارته الأخيرة لمصر حيث كان من أعظم بواعث سروره أن يرى أن أثبت وأرسخ تحالف هو التحالف العسكرى الأدبى

أبو تمام أيضاً

سيدى الأستاذ

فى الرسالة (٢٥٠) كتب المخرج المسرحى الكبير الأستاذ زكى طليمات كلمة بديعة عن المذهب الرمزى فى الأدب . ولقد تناولت كلته الأدب الاسلامى فذكر الخيام وشعر الخيام

فليسمح لى إذن بأن أذكره بشاعر آخر هو — فى نظرنا — خير من يمثل الرمزية فى الأدب العربى كله . وهذا الشاعر هو حبيب بن أوس الطائى المعروف بأبى تمام . فرمزية أبى تمام هذا تستحق منا — فى الحقيقة — جزءاً غير صغير من عنايتنا إذا نحن نظرنا فى الرمز بصفة خاصة ، وفى الشعر العربى بصفة عامة

فاذا اتسع لهذا القلم العاجز صدر الرسالة الفاضلة ، استطعنا أن نهدى إلى الأستاذ طليمات باقة صغيرة من رمزية أبى تمـام ، كرمز تقدير له ... والسلام عليكم ورحمة الله م . دهم

نزيل بالقاهرة

حول الدوس هكسلى

اطلعت فى عدد الرسالة الأخير فى باب « البريد الأدبى » عن « الدوس هكسلى » على بعض أخطاء أحب أن أصححها لكاتبها فقد ذكر أن « أوليسيس » من تأليف « إليس » والواقع أن أوليسيس كتاب شهير من تأليف جريس وهو أهم مؤلفاته وترجم إلى لغات كثيرة . والخطأ الثانى أنه ذكر أن إليس ألف كذلك « قصة » رقصة « الحياة » ورقصة الحياة ليست قصة وإنمـا هى كتاب فلسفى لها فيلك أليس . أرجو ياسيدى الأستاذ أن تنبه صديقنا لما ذكرت ولأخطاء مماثلة عن الدوس هكسلى نفسه منها أنه حفيد هكسلى الكبير لا ابنه كما ذكر الكاتب الفاضل ... ودمت للمخلص الشاكر ناجى

معهد الشواذ — تأليف لجنة لدراسة المشروع

عهدت وزارة المعارف إلى لجنة من موظفيها ، دراسة مشروع انشاء معهد للشواذ ، مؤلفة من حضرات الأساتذة ناظر معهد التربية ومراقب التعليم الابتدائى وأحد أساتذة معهد التربية ، وناظر فاروق الأول الثانوية ، ومدير متحف التعليم الذى يتولى أعمال السكرتيرية

وستكون مهمة تلك اللجنة دراسة المشروع من حيث حاجة البلاد إليه ، ووضع البرامج والخطط الدراسية اللازمة له ، والنظام الذى يتبع فيه وإعداد المدرسين الذين تتألف منهم هيئة التدريس

ويظهر أن الرأى متجه إلى إيفاد بعثات للتخصص فى شئون الشواذ ، وقد طلب إلى اللجنة المشار إليها إنجاز مهمتها على وجه الاستعجال ، حتى تتمكن الوزارة من تنفيذ المشروع فى السنة الدراسية القادمة

كتاب هندى عن مدنية الغرب

زار الدكتور ف. كارا كا — وهو من خيرة المثقفين الهنود — طائفة من ممالك الغرب ليخبر مدى ما بلغته من المدنية ومقدار ما أدركته من الحضـارة ، ثم عاد ليكتب مؤلفه (Igo weat) أو رحلته إلى الغرب . وقد صدر هذا الكتاب منذ أسبوعين فأثار ضجة كبيرة وكان لصدوره صدى عظيم خصوصاً فى انجلترا . فقد أرسل المؤلف لسانه فى الحضارة الانجليزية ، ونال منها بقلمه ما لم ينل منها قلم آخر من قبل . وقد تصفحنا الكتاب فرأينا المؤلف يكتب كوطنى هندى يتقم على الانجليز كل ما تلقى الهند من مصائب ويعزو إليهم تأخرها وانحطاطها بما سلطوا عليها من رجال (الطبقة الثانية) كما يسمى القائمين بالأمر منهم فى بلاده ، ويقصد بهم هذه الفئة العسكرية التى تتكلم بالسيف وبالمدفع ، وتحكم الملايين من بنى جلدته بالحديد والنار ، وتضحك على عقول أغنياء الهنود باللآلئ والأحجار الثمينة ، فى حين تنكر الخبز على الفقراء والملح على المعوزين

وليس على المؤلف فى هذا ملامة ، ولا عليه من تثريب لكن اللامة والتثريب فى هـذه النظرة السوداء القاتمة التى ينظر بها المؤلف إلى أرقى حضارات التاريخ ، ثم هذا التقدير الوجدانى المتعزز لثمرات تلك الحضارة ... ومادام يفكر الهنود بمثل تلك العقلية فلن يخلصوا من ربقة الاستعباد ... وقد شهدنا كيف انهزم مغزل غاندى أمام أنوال لانكشير ، وكيف انكمش غاندى وتقاعس ، لأنه لم يتخذ الوسائل الحديثة لتدعيم الحركة الهندية ، بل آثر عليها المغزل والعصيان المدنى والصوم ... وهى وسائل ضيقة واهية هى إلى الشعر الصوفى أدنى من البخار والكهرباء والغازات .



١ – حيـــــاتى

بقلم موسولينى وترجمة الأديب محمد عبد الحميد

٢ – جمال الدين الأفغاني

بقلم الأديب محمد سلام مدكور

كتابان يعرضان لك سيرة رجلين أولهما خالق أمة وثانيهما باعث نهضة . وما أحوجنا أن نلم بسير الرجال فى نهضتنا الحالية

نقرأ فى الكتاب الأول حياة موسولينى كما كتبها بنفسه أو كما أملاها ؛ وشخصية موسولينى لاشك من الشخصيات الجديرة بالدراسة من حيث كونه أحد عظماء هذا الجيل من ناحية ، ومن ناحية أخرى من حيث كونه من الرجال الذين تمس أعمالهم فى بعض وجهاتها مصر من بعيد أو من قريب

أجل يعتبر موسولينى مهما تكن نظرتنا معشر المصريين إلى سياسته من كبار عظماء هذا الجيل إن لم يكن فى طليعتهم . فهو رجل درج فى عيش الفاقة ، ثم كان فى مستهل حياته من الأوزاع والهمج ؛ ولكن كانت تتأجج فى صدره شعلة الحماسة ، تلك الشعلة التى لا تقوم عظمة بدونها ؛ وتجهمت له الأيام وتحدته الصعاب فمضى لا يعرف سهلا ولا صعباً حتى خلق من حالة أشبه بالعدم أمة قوية تتشكل سياسة العالم الآن حسب ما تأتيه من حركات ، وتضطر أعرق الأمم جاهاً وأعظمها سلطاناً أن تخفف أمامها من غلوائها ، وأن تخفى سيفها وراءها وتتقدم إليها بغصن الزيتون ؛ والرجل دائب العمل يأتى من ضروب النشاط والمغامرات ما يحمل حتى أكبر أعدائه على الاعجاب بقدرته وبيقينه وبتفانيه فى خدمة بلاده ...

والفاشية نظام تردد اسمه فى الشرق وأقبل على دراسته أهل السياسة وأهل الثقافة ؛ وأكبر ظنى أن دراسة نظام كهذا النظام لابد أن تستند قبل كل شىء إلى دراسة حياة صاحبه ، بل إن دراسة هذه الحياة أمر جوهرى لمن يريد أن يعرف حقيقة هذا النظام وينفذ إلى لبه . ولئن سلمنا بأن صاحب الدعوة قد يتعامى عامداً أو غير عامد عن بعض سوآتها ، فاننا من ناحية أخرى نسلم أن صاحب الدعوة أدرى بحقيقتها وأعرف بخفاياها من سواه

لذلك أرى أن القارئ يصيب من مطالعة هذا الكتاب غرضين : معرفة موسولينى وتفهم الفاشية . وكلاهما ليس بالهين . وهو أثناء ذلك يستمتع ساعات من الزمن بتلك الروح القوية

وفاة الشاعر محمد اقبال

يعز على الرسالة أن تنعى لقرائها وللعالم الاسلامى خاصة والعالم الانسانى عامة وفاة الشاعر الفيلسوف محمد إقبال الهندى الذى وقف ذكاءه المتوقد وعلمه الواسع وشاعريته السماوية على الإشادة بفلسفة الإسلام ومقاصده العالية ، ودعوة المسلمين إلى أن يعتصموا بها فلا يتهافتوا فى مهالك العصر الحاضر . ولم يقصر فى دعوة البشر كافة إلى الوئام والسلام والسمو فوق السفاسف التى يعتركون عليها والمذاهب المعوجة التى يوغلون فيها . وقد خلف إقبال للأدب والفلسفة كتباً كثيرة فى الأوردية والفارسية والانجليزية هى تراث عظيم من شاعر فيلسوف كبير . وستقضى الرسالة فى أعدادها التالية حق الرجل النابغة الذى عرفه قراؤها فيما تُرجم من شعره ورُوى من أخباره

تطالعه من بين سطور الكتب ، روح موسوليني ، ثم بتلك الحوادث العظيمة كالزحف على روما ومغالبة الصعاب حين القيام بأعباء الحكومة ؛ ثم الكفاح والجلاد للمحافظة على البنيان بعد إقامته وتدعيمه والعمل على إعلائه

من أجل ذلك أتقدم بالثناء والشكر للأديب المعرب لاختياره هذا الكتاب . أما من حيث الترجمة فليس لدى الأصل حتى أراجع عليه التعريب ، ولكني أميل إلى الاعتقاد أن من يضطلع بنقل مثل هذا الكتاب الفذ ، وله من شرف غرضه حافز ، جدير أن يتوخى الأمانة وأن يتحرى الدقة . وأما من حيث الأسلوب فاني أجدني مضطراً أن أصارح المعرب الفاضل أني كنت أحياناً يعسر على فهم بعض الفقرات ، كما كان يلتوي على بعضها كما أني كنت أقف عند بعض الكلمات التي وضعها في العربي كما هي في الأصل إذ لم يجد لها مرادفاً عربياً ، ولكنه كان حرياً أن يشرح المراد منها ، على أن هذا على أي حال يسير إذا قيس إلى مابذل من جهد محمود

* * *

أتحدث بعد عن الكتاب الثاني «جمال الدين الأفغاني» وقد حببه إلى عدة أشياء : أولها أن مؤلفه الشاب الأديب محمد سلام مدكور أحد تلاميذي ، حضر على دروساً في التاريخ أيام كنت أقوم بالتدريس في الأزهر ، وأشهد لقد توسمت فيه النجابة يومئذ ورجوت فيه وفي بعض زملائه الخير . واليوم أقرأ له مؤلفاً فأغتبط وأفخر ، وأي شيء هو أحب إلى المدرس من أن يرى ثمرة من ثمار غرسه ؟

وحبب إلى الكتاب بعد ذلك أن يضعه أحد أبناء الأزهر عن جمال الدين ، فيكون الكتاب بذلك . فضلاً عن أنه علامة اجتهاد ، دليل عرفان للجميل نحو أحد بناة هذا الجيل . ومن كجمال الدين أحق بعرفان الجميل وتخليد الذكر على يد الأزهريين خاصة وبني مصر والعالم الشرقي عامة ؟ ثم عطفني على الكتاب فوق ذلك أنه يدور حول تلك الشخصية الفذة المحبوبة ، فلقد كان جمال الدين رحمة الله ورضوانه عليه قبساً من روح الشرق انبعث في ظلمة الأيام والتمع كما يلتمع الشهاب في دجنة الليل ، وراح يعمل وحده ويبذر بذوره أينما حل ؛ أجل كان جمال الرجل الذي يظهر حين تتهيأ الظروف وتصبح بحيث لابد لها من رجل ؛ وأحسبني لا أغالي إن قلت إن نهضة الشرق الحديث إنما هي من صنع يده ؛ ولذلك فأنا أعده من رجال العالم المعدودين إن كانت له في تاريخ العالم حركة تركت أثرها في دورانه ...

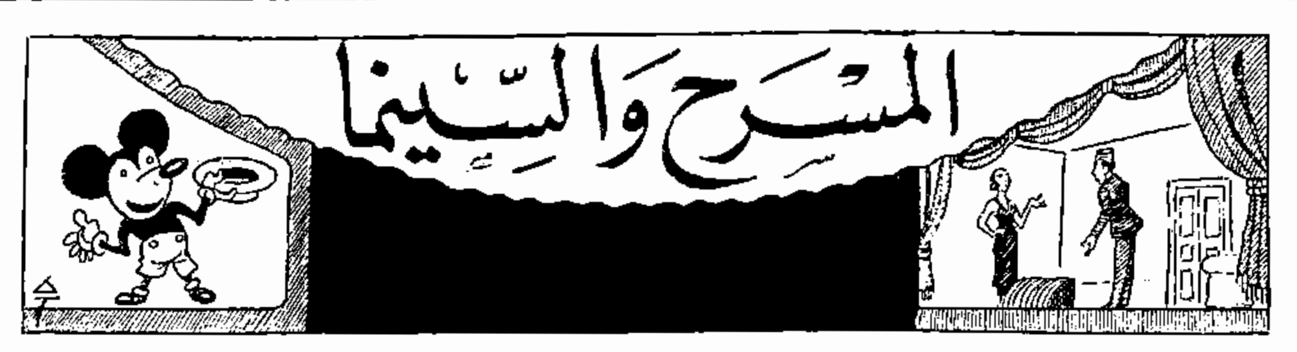
ولقد قدم هذا الكتاب بكلمة طيبة أحد رجال الأزهر الأماثل هو : الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق بك ، وإني أشاركه رجاءه وعطفه على المؤلف الشاب ...

وبعد ، فقد عودت طلابي ومنهم المؤلف الذكي أن يسمعوا مني كلمة الحق في جلاء ، وأنا موقن أنهم اعتادوا ذلك وراضوا أنفسهم الفتية المتوثبة عليه . لذلك أصارح سلاماً في جلاء أنه كان يستطيع أن يظهر الكتاب في ثوب أجمل من هذا الثوب فالكتاب بذلك جدير . كذلك كان يستطيع أن يتدارك كثيراً من الأخطاء المطبعية لو أنه أتى إلى عمله من الاهتمام أكثر مما فعل . فليسمع لومي على تقصيره ، وليأخذ نفسه بعد اليوم بتحري الدقة والإتقان ، هذا إلى أن أسلوبه وإن كان راقني في كثير من مواضعه ، يتطلب التهذيب في بعض النواحي

أما عن البحث في ذاته فحسبه في هذا المجال وفي هذه العجالة أن أعلن إليه أنه جاء على خير ما يرجى ممن كان في سنه وفي مثل درجة ثقافته . وهو يبشر بالتفوق في المستقبل إن شاء الله . ولقد أعجبني أنه لا يقتصر على مجرد سرد الحوادث فانه يقف لبرينا أثر تلك الحوادث في مجرى التاريخ

أثني على مدكور وأرجو الخير منه ومن زملائه من ناشئة الأزهر الحديثين . ولعل الله يجعل منهم في غد رجالاً أفذاذاً يعود بهم الأزهر المعمور سيرته الأولى من الزعامة في حياتنا الفكرية فذلك لعمري خير ما نرجو وما نرضى .

الخفيف



جولات ومطالعات

في المسرح والسينما

الرواية المصرية

أقامت جماعة أنصار التمثيل والسينما في السابع عشر من هذا الشهر حفلة تمثيلية كبرى بدار الأوبرا بمناسبة انقضاء ربع قرن على تأسيسها، وقد مثلت خمسة فصول من مسرحيات مختلفة سبق للجماعة إخراجها. ولست أدري إذا كانت الجماعة قد قصدت بهذا الاختيار أن تعرض جميع أنواع الرواية المسرحية أم أن المصادفة هي التي جعلت هذا البرنامج شاملا للرواية الغربية المترجمة والرواية المصرية المؤلفة والرواية الممصّرة أو المقتبسة عن فكرة أجنبية

وسواء كان ذلك عن قصد أو مجرد مصادفة فان هذا العرض الموجز قد جعلنا نتدبر على ضوئه مسرحنا وما يعانيه من فقر إلى الرواية المصرية الصميمة

اختص بالنجاح الأكبر في الحفلة فصلان من روايتي «حادث الطربوش»، «إلى الأبد» المصريتين، وأتى نجاحاً وسطاً فصل من رواية «دافيد جارك» الانجليزية. وكان أقل الفصول نجاحاً فصلان من الروايتين المصريتين «عبد الستار أفندي»، «الواجب»

وقد اتفق أن تكون درجات النجاح في هذه الفصول خاضعة لسلطان الرواية وقوتها فحسب، لأن الممثلين هم أنفسهم في معظم الفصول، وقد سبق لهم القيام بهذه الأدوار فتفهموها وأجادوا تمثيلها، وهي كذلك روايات مثلت مراراً واختيرت من بين روايات الجماعة الناجحة، واختير منها بعد ذلك أحسن فصولها

فهذا التفاوت في النجاح يجعلنا نوقن بحاجتنا إلى الرواية المصرية الصحيحة كما يجعلنا نوقن بأن في حياة كل شعب ذخيرة للرواية، فاذا أعوزتنا حقاً البيئة الخاصة فأمامنا البيئة العالمية التي نقلنا ولا نزال ننقل عنها روايات بأسماء مصرية نجحت بطابعها المصري نفس نجاحها بطابعها الأجنبي الأصلي

إن أكثر الكتاب اليوم لا يكتبون لجمهور خاص ولكنهم يعالجون المجتمع العالمي ويحلقون في آفاق واسعة ليشمل نجاحهم هذه الآفاق؛ فالكاتب الأمريكي مثلا لا يقصر كتابته على المجتمع الأمريكي لأنه يفهم غيره من المجتمعات الأخرى، ولأن هذه المجتمعات كلها تلتقي وتتشابه في نواح كثيرة، وقد أصبحت بعض النزعات تؤثر في العالم جميعه وتقرب من أبعاده. فالذي يحدث هنا جائز حدوثه هناك، والرجل الذي تلقاه في هذا البلد يذكرك بمن لقيته في بلد آخر

فلم نقف إذن عند عبد الستار أفندي الكاتب بوزارة الأوقاف وعم سيد البواب، وست أمينة الخاطبة، والحاج حسن العمدة الخ لم نذهب في كتابتنا إلى حيث لا نستطيع الحراك؟ لم نعالج شخصيات لا لبس فيها ولا غريب من ورائها ولا تنطوي على شيء يجهد الفكر أو يكسبه جديداً؟!

أنا لا أستطيع أن أنكر حاجتنا إلى الرواية المصرية القحة، ولكن لتحقيق ذلك علينا أن نسلك الطريق الصحيح إليها. فنحن شعب قليل الحركة، كثير الآمال والأحلام، فيجب أن تكون هذه الآمال والأحلام الميدان الأول للرواية ذات البيئة المصرية الخاصة. يجب أن نعالج النفسية المصرية بالكشف والتحليل فهذه خطوة يتبعها التوجيه العملي الذي يخلق الحياة والحركة قوام الرواية ومساكها، أما أن نبعث الرواية في حياة فقيرة تافهة ونقيم الشخصيات على حركة راكدة خاملة فان ذلك هو العبث والجهد المضيع

في المسرح

شهدت في الأسبوع الماضي حفلة غنائية أحيتها الآنسة

أم كلثوم بمسرح الحديقة . وقد أحسنت وأطربت فنانتنا الكبيرة ودلت على أنها تتعهد فنها الجميل بالمران والرعاية بخلاف معظم المطربين الذين يسمجون يوماً بعد يوم . فصوت الآنسة أم كلثوم اليوم أعذب منه منذ عامين وأكمل منه منذ أعوام

وقد نجحت الحفلة ولكن لم يكن من دلائل نجاحها هذا الصياح والأصوات المنكرة التي كانت تصدر من بعض الحاضرين عقب وقبل نهاية كل مقطع تغنائي على اعتبارها علامات الإعجاب والاستحسان

وقد اعتاد جمهورنا هذه العادة القبيحة التي لا تمت إلى الفن ولا إلى الذوق بأوهى سبب ، بل إن مقاطعة المطرب في غنائه بمثل هذا الصراخ إنما هو بالنسبة إلى الغناء « نشاز » يثقل على السمع ويزعج التنشي ويقضي على انسجام المغني

ولقد لاحظت على بعض هؤلاء الناس كأنما هم مكلفون بمثل هذه العادة حتى لقد تساءلت هل هذا جمهور طرب أو جمهور مظاهرات ؟ !

وأحسب أن هذه عادة تقليدية صرفة لا علاقة لها بالحس ، لأن الجمهور المجتمع حول آلة الراديو هو من نفس الجمهور الذي يستمع إلى المغني مباشرة ولكنه لا يجاريه في تهليله وصراخه ، وقد يستنكر منه هذا العمل

فالفارق بينهما أن هذا قد ألف هذه العادة عند ما يحتويه مع المغني مكان أو مسرح ، في حين أن الآخر لم يألف ذلك حين يستمع إلى الميكروفون

وأنا لا أنكر أن العامل في ذلك عامل فسيولوجي له أثره ، ولكن هذا الصراخ والأنين والتهريج ليس لها من مصدر غير اعتلال الذوق وعدم القدرة على ضبط النفس والأنانية . ويكفي مصداقاً لذلك أن نفكر في أن أمثال هؤلاء يسيئون إلى كل من معهم وقد يسيئون إلى آلاف أو ملايين المستمعين إلى الراديو ، كما أنهم يسيئون إلى المغني نفسه فوق إساءتهم إلى أنفسهم بتعريفهم لمثل هذا اللوم

فلم عن قناة السويس

أشرنا في العدد الماضي إلى ما تفعله بعض الحكومات إزاء الأشرطة السينمائية التي تخرج عن بلادها ، وقد ضربنا مثلاً بتركيا واليابان حين علمتا باعتزام بعض الشركات إخراج أفلام تسيء إليهما فتدخلتا لدى الشركات تدخلا أدى إلى احترام هذا الحق

وقد حمل إلينا البريد منذ أيام نبأ اعتزام المخرج المعروف داريل زانوك إخراج فلم باسم « السويس » يدور حول شق قناتها وحوادثها التاريخية . ولقد قيل إن مشروع الفلم على وشك البدء في التنفيذ فقد رصد له ميزانية قدرها مليونان من الدولارات وفوج الممثل المعروف جورج أرليس للقيام بشخصية دزرائيلي والممثلة الفرنسية سيمون للقيام بشخصية الامبراطورة أوجيني

فلعل حكومتنا تفعل مثل الحكومات الأخرى فتطلب ضماناً لرعاية كرامتنا في هذا الموضوع الذي يخصنا . ومثل هذا التدخل يفيد ولا يأتي بضرر وخاصة أن الفلم ضخم وتأثيره تابع لهذه الضخامة

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧